كتاب اليوم

فتحى غانم

أزمة الإسلام مع السياسة

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

□ عدد يوليو ١٩٩٨ □

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده

رئيس التحرير :
نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى ٢ دينار
المغرب ٢٠ درهما
لبنان ٤٥٠٠ ليرة
الأردن ٢٠٠٠ فلس
العراق ٧٠٠٠ فلس
الكويت ١,٥ دينار
السعودية ١٢ ريالاً
السودان ٣٢٠٠ قرش
تونس ٢ دينار
الجزائر ١٧٥٠ سنتا
سوريا ١٢٥ ل. س
الحبشة ٦٠٠ سنت
البحرين ١,٢٥٠ دينار
سلطنة عمان ١,٢٥٠ ريال
غزة ٢,٥٠ دولار
ج. اليمنية ١٥٠ ريالاً
الصومال، نيجيريا ٨٠ بنى
السنغال ٦٠ فرنكا
الإمارات ١٢ درهماً
قطر ١٢ ريالا
انجلترا ٢ حك
فرنسا ١٠ فرنكات
المانيا ١٠ ماركات
إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة
هولندا ٥ فلورين
باكستان ٣٥ ليرة
سويسرا ٤ فرنكات
اليونان ١٠٠ دراخمة
النمسا ٤٠ شلنا
الدنمارك ١٥ كرون
السويد ١٥ كرون
الهند ٣٥٠ روبية
كندا - أمريكا ٣٠٠ سنت
البرازيل ٤٠٠ كروزيرو
نيويورك - واشنطن ٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس ٤٠٠ سنت
استراليا ٤٠٠ سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا
اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا
أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا
أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا
٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات
٣ (أ) ش الصحافة
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)
● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠
● تلكس دولى : ٣٠٣٢١٠
● تلكس محلى : ٢٨٢
● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة
● تليفون وفاكس . ٥٧٩٠٩٣٠





فتحى غانم

مقدمة الكتاب

عقولنا .. أين ؟

أخطر قضايـانا المستعصـية، هى قضيـة العلاقة بين العقل والتفكير الحر من ناحـية والعقيدة الدينية من ناحية أخـرى. هناك حاجز قائم يعـزل العقل عن الدين، مع أن كلمة العقل ومرادفاتها ترددت أكثر من أية كلمة أخرى فى آيات الذكر الحكيم. والذى يتشكك فى ذلك عليه الرجـوع إلى معاجم كلمـات القرآن، وواضـح أن هذا التنبيه المتكرر إلى استخدام العقل والرجوع إليه سواء فيما يتصل بالإيمان، أو يتصل بشئون الحـياة الدنيا، إنما هو لموازنة الأحكام الكثـيرة التى تشـمل الأحـوال الشـخـصيـة والمـعامـلات المالية والتـجارية. وحـتى يتنبه العـقل الإنسـانى، إلى أنه مطالب فى كل وقت باستخدام عقله، ليتبين الظروف الحقيقية الواقعية من حوله، ويسترشد بالمبادىء العامة التى تقوده إلى التصرف السليم.

وإذا راجـعنا تاريخ الدين الإسلامـى. لوجدناه دين «الحـداثة»

لأنه قـام على تجـديد النظرة الدينيـة إلى العـلاقـة بين الإنســان وخـالقه وهو يعـترف بأديان السـمـاء التى سبـقتـه، ويكمل بناء العـقيـدة ويجـدده. ولذلك كان مـن الطبيـعى أن يكون العـقل هو أساس الإيمان، وكـان من الضرورى أن يشعر من يواجـه تعاليم الإسلام لأول مرة بأنه لا يثـور ولا يتمرد ولا يرفض الأديان التى سبقت، بل هناك إضافات جاءت من السـماء وهى أساسا إضافات تقوم على الاعتراف بحقه فى استـخدام العقل الذى هو أكبر نعمة منحها الله إياه.

وعندما نتابع عـصر الثقافة الذهبى للإسلام، نجـده عصر نهم إلى العلم. علوم الفلسفة والمنطق الإغريقـية أعاد المفكر الإسلامى استكشـافها، وقـدم للإنسانية أرسـطو وأفلاطون وكل الفلاسـفة الذين صنعوا الثقـافة اليونانية. حدث نفـس الشىء لعلماء الفرس والهند والصين، فمـا من عالم درس أى مجال من مجـالات الحياة فى الرياضيات أو الكيمـياء أو البصريات أو الفلك أو الإدارة.. إلخ إلا وكان يباشر نشاطه فى مجتمع إسلامى يحترم العلم والعقل.

وعندما وقف الاجـتهاد وتعطـل العقل وانصرف الاهتـمام إلى التـرف والصراعـات بين الرياســات، كان قـد اسـتقـر فى أذهان السلطات الحـاكمـة، أن الله يحفظ المـسلمين من كل سـوء، وأنهم انتصروا علـى الصليبيين وانتـصروا على التتار، لن يهـزمهم أحد فلما جاء نابليون بتكنولوجيـا عسكرية جديدة، أسقط فى يد العالم الإسلامى. ومـازال حتى يومنا هذا يبحث عن مخـرج للأزمة التى وقع فيهـا. ولكنه ينفر من الذين يذكرونه بأنه خسر مـعاركه لأنه عطل عقله، ولم يعد مـصدر إشعاع فكرى وثقافى كمـا كان الأمر أيام أمجاد الماضى.

أذكـر أنى عندمـا حاولت أن أتعـرف على كلمــة.. حـداثة.. منذ سنوات بعـيدة.. فـوجئت بأن الكـلمة «مـودرنزم» يفهـمونهـا فى الغرب على نحـو يختلف تمامـا عن المعنى الذى كـان سائدا بيننا فى مجتمع إسلامى. كان الناس يتحدثون عن المودرنزم على أنها الخلاعة، أو أنها الجلوس فى البـارات وشرب الخمر، أو أن ترتدى المـرأة «المودرن» أحـدث أزياء المـوضة التى تعـلن عنها بيـوت الأزياء فى باريس. ولكن تبينت لفزعى، أن كل هذا هراء. وأن هناك «مودرنزم» أوروبيـة للتصدير غـير «المودرنزم» الحـقيقـية التى يتعاملون بها ويعـتمدون عليها فى تطوير وسائل المعـيشة. كانت «مـودرنزم» تعنى فى أوروبا فى بداية القـرن العـشريـن التيـار الفكرى الدينـى الجـديد. ولم يقـتـصـر هذا التـيـار على انجلتـرا البروتستانتية. بل امتد أيضا إلى الكنيسة الكاثوليكية التى يرأسها البـابا فى الفـاتيكان. ويقـول الكاتب الكاثوليكى «جـورج تيـرل» أحسن وصف «للمودرنزم» فى اعتقادى، هى أنها رغبة فى العثور على فكرة دينية جديدة تتفق مع الحقائق التاريخية، والتوفيق بين هذه الحقائق الأساسـية فى العقيدة وبين الحقـائق الأساسية التى وصل إليها العلم الحديث.

بمعنى آخر «المودرنزم»، هى استمرار ودعم العلاقة بين العقل والدين. بين اكتشـافـات العلم الحديث وبين الأسس التى جاءت بها العقيدة. والغريب حقا أن من بيـن جميع أديان السماء، لا تجد مثل الدين الإسـلامى فى حرصــه الشديد على هذا الارتباط الوثيق بين العلم والعقيدة وهو مـا يطالب به أنصـار «الحداثة» فى أوروبا مثل رجل الدين «وليم صنداى» وهو يقـول: «الحـداثة أن تفكر وتتكلم

بلغة اليوم مع الاحـتفاظ فى الوقت نفســه بكل ما هو أساسـى فى معتقداتك الدينية التى ورثتها من الماضى» !

عندمـا نتأمل هذه المـواقف «للمـودرنزم» ونقارن بينهـا وبين أجيـال عاصرناها فى الخمـسينيات كـانت ترى «المودرنزم» هى الرقص الإفرنجي. ومعرفة الفرق بين رقصات «السامبا والكونجا» نجد إلى أية حـالة تدهور فيها العـقل، حتى بين المثقـفين لأن هذا المفهوم عن المودرنزم، كـان السائد بين الشباب الذى حصل على أعلى الشهـادات، وسافر ليتـعلم فى اكسفـورد والسوربون. وفى الوقت نفـسه، كان الفـكر الإسلامى يزداد انكمـاشا وانغـلاقا. فى حدود تـرديد أحاديث من العـبادات وكـيف تكون الصلاة وكـيف يكون الحج، ومـا هى شروط الإفطار فى شـهر رمـضان. وكـيف يكون الدخـول إلى المسجـد أو البيت، ومـتى تقدم رجلك اليـمنى ومتى تقدم اليسرى.

ثم بدأت مع تكـاثر التـحديات والمـشـاكل الاجـتـمـاعـيـة والاقتصـادية، تظهر عقول تريد أن تفكر، من بيـن شباب بلغ سن الرشد أو كـاد، فى مجتـمع قامت تقـاليده على الفصـل بين العقل والتفكـير فى الدين. الجـوائز لحفظ القـرآن وليس لفهمــه. والذين يتـحـدثون فى الدين يتـشنجـون ـ مـعظمـهم ـ ويملون الأحكام ويصـدرون التعليـمـات، وكأن كـلامهم حـاسم ونهـائى.. وأغلب السامعين محرومون من القدرة على مناقشة ما يسمعونه، وعليهم الإذعان والخـضوع.. ونتـيجـة ذلك. أننا نحتـشد فى مجـتمـعات عاجزة تماما عن فهم لغة العصـر. عاجزة تماما عن المشاركة فى العلوم والفنون والابتكارات الـتكنولوجيـة التى تعتـمد على قـدرة

التمييز والإدراك والتعامل مع أدوات تتطلب سرعة البديهة والقدرة على اتخاذ القرار ـ ربما فى لمح البصر ـ وهو أمر لن يتحقق لطفل قضى حياته الأولى يحلم بجائزة حفظ آيات القرآن الكريم، وأصبح الحفظ ـ لا الفهم ـ هو السلوك الذى اعتاد عليه.

وبديهى أنه ليس من الإسلام فى شىء، ألا نواجه القضايا الأساسية بعقولنا. فهكذا طالبنا الحق بأن نتعرف على وجوده، وأنه وحده لا شريك له. وبغير ذلك يكون المنطق معكوسا، والإيمان مغلوطا. بمعنى أن تؤمن بوجود الله عن طريق إيمانك ـ مثلا ـ بالكتاب الذى أنزله. أى تؤمن بالكتاب قبل أن تؤمن بمن أنزل الكتاب، وتؤمن بالرسول قبل أن تؤمن بالذى بعث الرسول. إن الإيمان بالله مطلوب أولا بالعقل وبالاقتناع العقلى. وهذا هو الضمان الأكبر لبقاء الإسلام ولإزدهار الإيمان. أن يكون الإيمان بالعقل، وأن يكون مجتمع المؤمنين مجتمع عقلاء، تكون السيادة فيه للعقل أولاً. أو بمعنى آخر، تكون القدرة العقلية للمؤمن، لها حد أدنى من السلامة والأصالة الفطرية. وهى التى تجعل المؤمن قادرا على التصدى لتحديات عصره، وقضايا زمانه. والتى لابد أن يستخدم فيها عقله.

وبغير تحكيم العقل، تتعرض المجتمعات الإسلامية لمخاطر تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا سطحيا ظاهريا، ويتحول هذا التطبيق إلى فرض أحكام جائرة، ومظالم بشعة، وغسيل عقول للشباب، بل للصبية الذين يلقون وقودا فى حروب باسم الإسلام وهم مازالوا أطفالا دون سن البلوغ.

إن التاريخ يذكر لنا، أن علماء بخـارى قالوا لأميرهم فى القرن الماضى - ١٨٧٥م - إنه ليس بحاجة إلـى علوم حديثة ولا أسلحة حديثة، وأنـه يكفيه أن يرددوا آيات من الذكر الحكيم، ثم يـوجهوا أنفاسهم فى اتجاه العدو الذى هو جيش قيصر روسيا، فينصرهم الله على أعدائهم الكفار ولم يستطع أن يقاوم أمـير بخارى ضغوط «المؤمنين» الذين يرفضـون المقارنة بين قدرة آيات القرآن الكريم، وقدرات سلاح الأعـداء الكفار. وكانت النتيجـة أن سقطت بخارى وهى مدينة فى ازبكســتان إحدى جمــهوريات الاتحاد السوفـيتى السابق.

إن تطبيق الشريعـة الإسلامية، أمر لا يرفـضه أحد. ولكن يظل بعـد ذلك السـؤال الملح قـائمـا. أين العـقل الذى تســتخـدمـونه، وتواجـهون به قـضـايا التحـديث والتـحـدى الحضـارى، وثورة التكنولوجـيا. وتخزين الـمعلومات، والسـيطرة على أبعاد مـكانية وزمانية على اتساع الكون كله.

إن رئيس وزراء فرنسا، كان يصرخ مـحذراً الفرنسيين، بأنهم معرضـون للسقوط فى هوة التخلف خلال خمس سنوات فقط، إذا لم يواجـهوا مـتطلبات الـثورة الصناعـية التكـنولوجيـة الحاليـة، وطالبـهم بأن يتأملوا - طبـعا بعـقولهم - أنه فى خـلال السنوات الخمس القادمة، ستخرج المصــانع أجهزة ومعدات لم يسمع عنها البشر حتى اليوم. وأن هذه الأجهزة ســتمثل أربعين فى المائة مما تخرجـه المصـانع اليـوم. إنه تغييـر خطير وحـاسم وتحد رهيب، سوف يفرض فجوة من التخلف على من لا يلحق بالعصر فيخسر كل شىء.

وإذا لم يهتـد المسلم الحقـيقى إلى أهميـة العقل، الذى تعلم أن يعـرف به ربه الذى لا شـريك له، فلن يهـتـدى أبدا إلى مـشـاكل التـحـديث المـعـاصـرة، ذلك لأنه عـرف ربه، بـأسلوب التـقليـد والمحاكاة، أو بأسلوب لا عقلانى فتجاهل الطريق المأمون للحفاظ على الإيمان وازدهاره.

وللأسف مـازال الذى يشغل من ينجـذب إلى الدين، رغبـة فى إثبات الذات، أو شـعورا بالتحـدى لمظاهر تستفـزه، كارتداء الزى الغربى، أو الكلام بلـسان أجنبى، أو ممـارسة عادات أجنبـية، هو بحكم ظروفه التى نشـأ فيها يجهل عنهـا كل شىء. وأحيانا يكون الإحباط، أو اليأس من الحياة بما فـيها من مظالم وأحكام تعسفية، كل هذا يكون دافعا للجوء إلى الـدين عن طريق الغضب والانفعال والرغـبـة فى الخـلاص من المـأزق. أو التـشـفى والانتـقـام من الظالمين، وتتعـدد الأسباب، ولكنها تعبـر فى حقيقتهـا عن مأساة فقـدان الاعتـماد على العقل. وإنهـا لا تمثل تعـبيرا صـحيـحا عن الإيمان بالله عن الطريق المأمون، طريق التأمل والتـفكير والتبصر بالعقل.

وهناك من يحاول تسيـيس الدعوة الدينية فيـصورها على أنها ليست مـجرد رؤية ونظام للحياة، بل هى مـعركة حضـارية، ضد أخطار الصـهيونية، والصليبيـة الامبريالية، والالحاد الشيوعى. ثم يضع كـل هذه الأخطار فى سلـة واحـدة، هى سـلة العلمـانيـة فيهاجمها ويـهاجم دعاتها، وكأنهم الطاعون. ويرفض أن يرى فى الدعوة للعلمانيـة أى احتمال للتفاهم معـها، أو يكون صاحب هذه الدعوة من بين المسلمين، مع أن كثيرا من المسلمين، رفعوا شعار

العلمـانيـة منذ ثورة ١٩١٩ دون أن يلاقـوا مثل هـذه الاتهامـات الرهيبة ضدهم وإدانتهم بأنهم صهيونيون صليبيون امبرياليون!

ووقوف مـن ينادى بالعلمانيـة عند الشكل، واكتـفاؤه بتـرديد شعار العـلمانية، هو أيضا أحـد أسباب إثارة الريبة حـول شعاره الذى يرفعه.

وغالبا ما يكون شـعار العلمانية مرتبطا بالديمـقراطية والدعوة لها بمفهوم ليبرالى عام وغامض.

ولن يمتـحن هذه الدعوة ـ أيضـا ـ إلا العقل الذى يسـتخـدمه المؤمن، حـتى يقبل منهـا ما يقبله، أو يعـدل فيـها، أو يطورها، أو ينتـهى إلى رفضـها بناء على أحكام عـقله، لا بناء على انفـعالات تعتمد على استـسهال ترديد الشعارات، وإطلاق الأحكام والتلويح بالاتهامات. فقد يكون الذى نأخذه ـ دون أن نحس إيمان المؤمن ـ من العلمـانية، هو تفسـير لهـا يرتبط بالثورة الصناعـية الثـالثة، ورؤية تستمد عناصرها من تصور المستقبل، وقدرة على التبصر بما يجرى فى «العالم» ومـا فيه من قوى تتربص ببعضـها بعضا. ثم يضاف إلى ذلك خيال فيه رحابة وتفاؤل بالإنسانية، وبملكوت السماء والأرض، كما خلقه الله، وبنظرة فيـها براءة طفل، وحكمة شيخ، وحدس فنان، وعقل عالم.

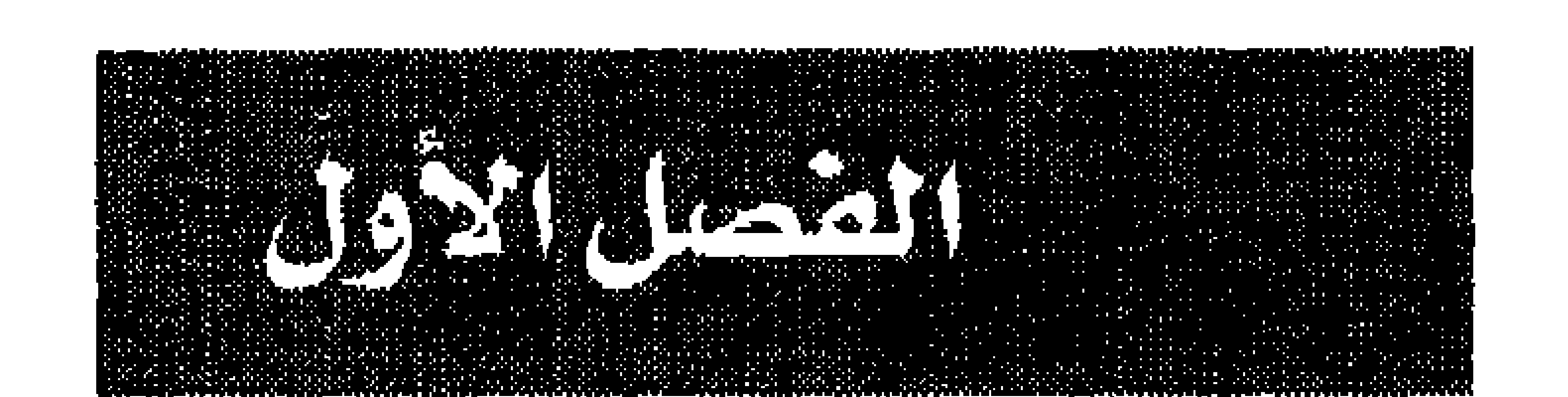
إن حجر الزاوية فى كل هذا، هو العقل، فـإذا لم نتمسك به، فلا جدال ولا مناقشـة، ولا دين، ولا علمانية، ولا ديمـقراطية، ولا أى شىء. وعندئذ يسـتطيع من يريد أن يطلق شـعـارا دينيا ويهـتف هتافا دينيا فيؤثر فى الجمـاهير، ويستطيع محرض غاضب حانق

ثائر، أن يصرخ ويطالب بالانتقام لأى سبب، ويندفع للتدمير والتفجير، ويجد الجماهير تنساق وراءه بغير وعى.

والدعوة للعقل، ترتبط اليوم فى أحد جوانبها، بالتحديث، بمواجهة الثورة الصناعية الثالثة، وبعبور فجوة التخلف، قبل أن تزداد اتساعا، فيتحول التخلف، إلى عزلة بين بشر وبشر، فيصبح المتخلفون وكأنهم حيوانات فى الغابات، بالمقارنة بالإنسان المتحضر. ويشار إليهم - أو إلى بقاياهم - فى أمان متقدم على أن هؤلاء كانوا يوما أصل الإنسان، على نحو ما يقال اليوم إليهم الأورانج - أوتان.

ولا شك أن غياب النشاط العقلى عند المواطن المسلم كان سببا مباشرا لأزمة الإسلام والسياسة بمظاهرها المتعددة التى حاولت أن ألقى عليها نظرة فاحصة فى مجالات مختلفة تكشف لنا الخلط والتزييف بين دعاوى السيطرة والتسلط التى تتستر بالدين وقد اعتمدت على غفلة المسلم والجمود العقلى الذى أصابه لتسيطر عليه وتقهره سياسيا.

فتحى غانم



رجل الدين

لعبته السياسة !

كان الشــاه يستعـد للفرار من طهـران إلى روما. وكانت حاشيته قد اجرت اتصالات بفندق اكسلسيور بشارع «فـيافـينيتو» الشـهيـر بروما كمـحطة أولى للشـاه فى رحلة الفـرار من ثورة الدكتـور مصـدق الذى أمم البترول الإيرانى عام ١٩٥٣.

قبل أن يغـادر الشاه طهران قـرر أن يقوم بزيارة أخـيرة، إلى رجل الدين آية الله «بوروجـردى» ليسـتشـيره، ولما دخـل الشاه القاعـة التى يجلس فـيها آيـة الله على سجادة يـحيط به تلامـيذه، وقف الجميع احتراما للضـيف الامبراطور. ما عدا رجل واحد، ظل جالسا على السجادة يصـوب نظرات حادة إلى الضيف رافضا أن ينهض أو يصافحه.

الشاه يغدق الهدايا على آيات الله

وسرعان ما كانت طهـران تتناقل الحادث، فى المقاهى والأزقة

وفى بيوت الفقراء، إن رجل الدين آية الله الخومينى رفض مصافحة الشاه. وهكذا أصبح الخومينى على لسان الإيرانيين، فهو الرجل الذى أحدث تحولا فى العلاقات التقليدية بين السلطة الدنيوية ورجال الدين أصحاب السلطة الروحية بين شيعة إيران. وكان التحالف قائما بين السلطتين والشاه يغدق الهدايا والأموال على رجال الدين، بينما رجال الدين يمنحون الشاه البركات والتأييد والدعم الروحى.

السافاك تتنبه للخومينى

وفى تلك الأيام. سرعان ما خبت جذوة ثورة مصدق، وعاد الشاه سريعا من فندق اكسلسيور إلى طهران ليستقر على عرشه بينما تهيأت الظروف لأن يكون النفى من نصيب الخومينى، وقد نضجت ظروف النفى بعد وفاة «آية الله بوروجودى» عام ١٩٦١.. وحدث أن ألقى الخومينى خطبة فقام طلبة جامعة طهران بطبعها وتوزيع مائة ألف نسخة منها فى العاصمة. وشعر رجال الأمن «السافاك» بالخطر، فالخومينى يعبر الحواجز التى كانت تفصل بين الطلبة كقوة تقدمية أغلبهم من اليسار، ورجال الدين كقوة محافظة أو رجعية تؤيد حكم الشاه. لقد وجد الطلبة فى الخومينى رجلا يردد من آيات القرآن «قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» وهو عندما يخطب يرتفع صوته الحاد الرفيع مع نعومة صوت مغنى الأوبرا من طبقة التنور، وله جاذبية وعينان مغناطيسيتان تجذب القلوب مع الأبصار والأسماع وهو يتحدث عن « المستضعفين ، والمنافقين، والظلم، والثورة الإسلامية».

الخومينى والجنرال رحيمى

قالت السافاك : مثل هذا الرجل يجب أن يختفى، ينفى من البلاد. واختار الخومينى أن يذهب إلى النجف ويعيش فى أحضان وكنف سيدنا على وأولاده رضى الله عنهم. ولكن رجال الشاه. كانوا يلاحقونه، فهو يواصل ترديد تلك الآيات من سورة النمل عن الملوك، واتصالاته بالمثقفين الإيرانيين وبعض رجال الجيش الإيرانى تنذر بالخطر. وعندما عقد الشاه اتفاقية مع العراق بعد وساطة جزائرية عام ١٩٧٥. وجد الخومينى أن العراق التى تهادن إيران لا تناسبه، فهاجر إلى فرنسا، حيث أقام فى قرية نوفيل لوشاتو.. وهناك واصل اتصالاته بالإيرانيين. ومن بينهم الجنرال رحيمى الذى اعترف فيما بعد لاريك رولو الصحفى بجريدة لوموند الذى أصبح سفيرا لفرنسا فى المغرب، بأنه سافر قبل الثورة واجتمع بالخومينى فى «نوفيل لوشاتو» وعاد ليدعو إلى ديمقراطية وجبهة تتحالف فيها التيارات والأحزاب السياسية المعارضة للشاه ومن بينها حزب تودة الشيوعى.. مع المطالبة ببرلمان دستورى على المثال الانجليزى أو الفرنسى والاهتمام بأن تتجنب إيران التورط فى مشكلة تعدد الأجناس الذين يمثلون أقليات تصل فى مجموعها إلى خمسة وأربعين فى المائة من تعداد الشعب الإيرانى.

وهذا الجنرال نموذج من عديدين اتصلوا بالخومينى فى فترة الإعداد للثورة، وشهادتهم تدل على أن الخومينى كان يعمل بالسياسة. ويرصد القوى السياسية فى المجتمع الإيرانى ويسعى إلى مهادنتها فى مرحلة الإعداد للثورة ثم الاستيلاء على السلطة التى سينفرد بها فيما بعد.

واستطاع الخـومينى أن يقدم نفســه لقوى المعارضــة كأقوى سلاح ضــد الشاه. حتى رجال البــازار تجار الحوانيت الصغـيرة. وصانعو السـجاد وأصحاب مـحلات الصاغة اقتنـعوا بأنه سوف يحررهم من سيطرة الشركات الأجنبيــة الكافرة التى يتعامل معها الشــاه. وكــان بيـن رجــال البــازار من يخـشى أن يـتـعـامل مع المصارف الكبـيرة التى يتحدث فـيها الموظفـون بلغات أوروبية، فاطمأنوا إلى استقلال الخومينى وتحرره من قيود الغرب.

حسابات أمريكية وسوفيتية

فى الوقت نفسه كان الاتصال بخبراء الإدارة الأمريكية يقنعهم بأن الاتجاه الذى يتحـرك فيه الخومينى يبعـد إيران تماما عن أى تسلل شـيوعى. يهـدد بتـصاعـد حزب تـودة الشيـوعى. كمـا أن تصـرفـات الشــاه، وحيــاة التـرف والبـذخ تشـجع كل الدعــاوى اليسارية التى تحارب أمريكا وتميل إلى المعسكر الاشتراكى. كان الخومينى هو البديل الذى يكتسح كل هذه الأعراض اليسارية التى تقلق الإدارة الأمريكية. حـتى أن سفير أمريكا فى طهـران اعترف بأنه تلكأ فى مساعدة الشاه ضد تعليمات الرئيس كارتر، لأنه كان واثقا من أن الثورة التى يقودها الخومينى تطرد الشبح السوفيتى من إيران إلى الأبد.

من ناحيــة أخرى كانت حسـابات السوفـيت تدعوهم إلى منح الفـرصــة كـاملة للخـوميـنى، وكانوا يـرون أن سيـاســة الإدارة

الأمريكية قصيرة النظر، لا ترى سوى اليوم، أما الغد فلا تدرى عنه شيئا. كانوا يتوقعون أن تسود الفوضى إيران، وينتهى الأمر بسيادة اليسار بعد سقوط الشاه وبعد فشل ثورة الخومينى.

بين الشماتة والانبهار

وهكذا تهيأت الظروف ونضجت لقيام الثورة، التى تلقى ترحيبا من الداخل ومن الخارج أى من القوتين الأعظم وبدأ وانتصر الخومينى قبل أن يغادر نوفيل لوشاتو، كما لو كان يقوم بمعجزة ويقود ثورة أسطورية تنتصر على امبراطور يقود جيشا هو القوة الخامسة بين جيوش العالم يدربه خبراء أمريكيون، ويتحصن بجهاز السافاك بشهرته الواسعة فى البطش بالمعارضين.

وفى يوم ٣١ مارس ١٩٧٩ غادر الشاه إيران للمرة الثانية، تلاحقه أنظار شامتة، بينما غادر الخومينى فرنسا تلاحقة أنظار مبهورة مسحورة.

ولم يذهب الشاه إلى فندق اكسلسيور فى روما هذه المرة، وكانت دواعى الأمن على حياته تقتضى بأن يجد من يلجأ إلى حمايته، ورفضت أمريكا أن تقدم له الحماية، وكشفت عن توقعاتها أن تستثمر علاقاتها بالخومينى رجل الدين والإيمان العدو الأول للشيوعية والإلحاد. وبينما كان الإيرانيون يسجدون فى حضرة الخومينى، ويرددون وراءه هتافه «الله أكبر الله أكبر» ينطقه بلهجة عربية سليمة، كان الشاه يجد مأواه عند السادات.

باب الأمل

ولم يتردد الخوميني، في أن يهاجم على الفور الرؤساء الثلاثة: الرئيس الأمريكي كارتر والرئيس المصري السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين، وأعلن أنه جاء ليطبق شريعة الله والدستور الإسلامي ويدعو لإقامة أمة إسلامية عالمية موحدة.

كانت دعوة لها بريق ليس من السهل إنكاره، في وقت واجهت فيه كل المشروعات الأخرى للأمة العربية أو الإسلامية نكسات متلاحقة.. شعار القومية العربية واجه أزمات الانفصال بين مصر وسوريا وفشل مشروع الاتحاد الثلاثي بين سوريا والعراق ومصر. وفشل الاتحاد مع ليبيا أو السودان والحرب معلنة بين حزب البعث القومي في العراق وحزب البعث في سوريا. أما الاشتراكية فقد لاقت هزيمة عام ١٩٦٧ ووجه لها السادات ضربات متلاحقة قبل وبعد انتصار ١٩٧٣ الذي انعش التيار الديني في مصر، كما انتعش التيار الديني اليهودي من قبل بانتصارات إسرائيل في حرب ١٩٦٧ وأصبح باب الأمل أمام الجماهير في الأمة الإسلامية مرتبطا ـ عاطفيا بما سوف تحققه الثورة الإيرانية بزعامة الخوميني الرجل الأسطورة وتطلعت الجماهير إلى عالم إسلامي قوي يحرر المقدسات الإسلامية، المسجد الأقصى والقدس ويسترد حقوق «المسلمين» في فلسطين.. وأعلن الخوميني مشروعه «الجمهورية الإسلامية»، ليحدد مواقف كل الذين تحالفوا معه حتى يصل إلى طهران.

شعار غامض

وبدأت عملية الفرز.. فاعترض «دفترى» حفيد الدكتور مصدق وزعيم الجبهة الوطنية على مشروع الخومينى لأنه يريد بالطابع الدينى الذى يفرضه أن ينفرد فى نهاية الأمر بالسلطة وحده وطالب «دفترى» بمقاطعة الاستفتاء على الجمهورية الإسلامية، لأنه لا يجد فيه سوى نظام استبدادى لصالح الخومينى وليس لصالح المسلمين والإسلام.

أما مجاهدو خلق، فقد ناقشوا شعار «الجمهورية الإسلامية» ما معناه؟ ما المقصود به؟ إنه شعار غامض لا يفسر شيئا محددا. ما أهداف الحكم غير هذه الكلمة الشائعة «تطبيق الإسلام» كيف يكون التطبيق، ما وسائل تحقيق الأهداف؟

ثورة الأقليات وأنياب الخومينى

وفى الوقت نفسه ، ظهرت الأقليات التى تكاد تصل إلى نصف الشعب الإيرانى، من عرب فى خوزستان إلى تركمان أى أكراد سنيين، إلى أكراد شيعيين، إلى بلوش، وهى أسماء قبائل لها «ستان» أى أرض، فأرض الأكراد هى كردستان وهكذا. وقد أرادوا أن تكون لهم مدارسهم التى تعلم لغاتهم، وأن يكون لهم استقلالهم الاقتصادى والثقافى. وقد طالبوا بمقاطعة الاستفتاء لأنهم وجدوا أن شعار الجمهورية الإسلامية، هو وسيلة للتحكم فيهم مركزيا من طهران أو من «قم» العاصمة الروحية التى يقيم فيها الخومينى.

وهنا كشف الخومينى عن أنيابه السياسية فى صورة فتوى

دينيـة أعلن فيهـا أن عمليـة الاسـتفتاء هى واجب « دينى » فمـن لا يذهب إلى صناديق الاسـتـفـتـاء يسـتحق العـقـاب لأنه ارتكب معصية.

وفى خطوة تكتيكية أخرى أعـلن الخومينى. أن كل من يعارض الاسـتـفـتـاء هو من أنصار الشـاه. دون تفرقـة بين أنصار الـشـاه الحقيقـيين وأحزاب المعارضة التى تحالف معـها الخومينى لخلع الشاه. لقد أشـهر الخومـينى سلاح الدين والخيانة للثورة فى وجه كل من يعارضه.

ولم يتفق مع الخومينى فى ذلك الموقف من بين أحزاب وقوى المعارضـة سوى حزب تودة الشيـوعى. وكان الأمر يبدو غـريبا، ولكن اسـتـراتيجية الاتحـاد السوفيتـى، كانت قائمة على تشـجيع الخـومينى، لأنه سـوف ينهار بعـد أن يقضـى على جـميع الـقوى الأخرى غير الشيـوعية أو سيعمل على إضعافهـا ليخلو الجو بعد ذلك لحزب توده بتاريخه الكبير فى المجتمع الإيرانى.

رحيمى يتحدى بازرجان

وتوقع الخومينى أنه مقبل على صراع كبير على السلطة. وكان لا يطمئن إلى قوات الجـيش الامبراطورى، كمـا كان لا يطمئن إلى المدنيين الذين فى الحكومـة. بازرجان رئيس الوزارة، وبنى صدر رئيس الدولة. وكـان لا يجد أمـامـه سوى «البـاسـدران» الحـرس الثورى الذى يتكون من شـباب مجند من الفـقراء المعدمـين يقدم لهم الطعام والمأوى فيقدمون له حياتهم.

وهنا لجـأ الخومـينى إلى الجنرال «أمـير رحـيمى» الذى كـان

يتردد عليه قبل الثورة فى «نوفيل لوشاتو» ووضعا خطة توضح لنا قدرات الخومينى فى التآمر السياسى، بصرف النظر عن مكانته الدينية.

وقف الجنرال أمير رحيمى يوم ٩ يوليو ١٩٧٩ فى مؤتمر صحفى وأعلن فجأة أمام الصحفيين أن هناك مؤامرة لإبعاده عن منصبه كقائد للشرطة.

والذين يدبرون المؤامرة يريدون إحداث بلبلة فى صفوف القوات المسلحة، يبررون بها مطلب إعادة المستشارين والخبراء الأمريكيين للإشراف على القوات المسلحة !

كلام خطير وغير متوقع أن يعلنه مسئول عن الأمن على هذا النحو أمام الصحفيين والمراسلين الأجانب. بعد ساعات كان رئيس الوزراء بازرجان يصدر قرارا بعزل هذا الجنرال الأحمق الذى يدلى بهذه التصريحات غير المسئولة علنا ويثير ثائرة القوات المسلحة. وعقب صدور قرار العزل، وقف الجنرال رحيمى متحديا فى مؤتمر صحفى آخر وأعلن أمام المراسلين أنه لا يخشى أحدا ولا يخاف الموت. وأن «الجميع يريدون قتلى وأنا أفضل الموت على حياة الذل والمهانة والخضوع لأعداء الثورة».

وأضاف رحيمى أن البلاد أصبحت فى حاجة ماسة إلى قيادة دينية.

ولم يتحمل بازرجان هذا التحدى السافر. فقرر أن يمارس سلطاته حتى النهاية فأصدر أوامره باعتقال الجنرال رحيمى وبعض رجاله فى معتقل بمعسكر «حمشيدية».

كان غريبا ومثيرا للريبة أن الجنرال رحيمي يبدو عليه عدم الاكتراث، وهو المعروف بصلاته القديمة بالخوميني. ولكن المفاجأة الكبرى كانت في القرار الذي جاء من «قم» يعلن أن الخوميني قد ألغى قرار اعتقال الجنرال رحيمي، بل أنه أمر بأن يتحول معتقل «حمشيدية» إلى مركز ثوري لتدريب الرجال بقيادة الجنرال حتى يكونوا قوة ترهب أعداء الثورة.

تنظيف كردستان

وهكذا وضحت نوايا الخوميني لقد قرر أن يخوض المعركة، ولن يعتمد على رجال الدين واتباعه المخلصين وحدهم، وأن يتخلص من المدنيين ويضرب المعارضة والأقليات القومية.

وأعلن الخوميني الحرب المقدسة ضد الأكراد الكفار قبل نشوب الحرب مع العراق بحوالي عام. فهاجم الباسدران قرية «اندرجاش» ثم قرية «غرنة» وأبادوا وسحقوا من تصدى لهم، وقتلوا من لجأ إلى المساجد، حتى الأطفال، ورجال الدين الأكراد رفعوا شعار «تنظيف كردستان» ويبلغ عدد الأكراد ستة ملايين. وفر كثيرون منهم خاصة سكان قرية ماريفان إلى العراق أو إلى المغارات في الجبال.

لا فرق بين فارسي وعربي في الإعدام

أما العرب في خوزستان فقد لاقوا الأهوال على يد الأميرال أحمد مدني، وهو إيراني متعصب للفرس ضد العرب، وعينه الخوميني حاكما لخوزستان وأصبح مقر قيادته في الأهواز عاصمة الإقليم.

كان الأميرال مدنى يفـتخر بأنه فارسى من أصل آرى ونشرت الصحـف الغربيـة فى أمريكا وأوروبا تصـريحات له يقـول فيـها بعجـرفة وزهو: إنه يتـوقع أن يضع له المتظاهرون العـرب قنبلة ناسفة فى مكتبه بالطابق الأول، ولـذلك هو مضطر أنه يحيط مقر قيادته بالباسدران.

وبمجرد توليـه السلطة اعتقل «المدنى» ثلاثمـائة وأعدم أربعة عشـر منهم دفـعة واحدة، ثـم استمـر فى توقيـع عقوبـة الإعدام وتنفيذها يوميا.

وسأله صحفى أجنبى عن الإعدام اليومى.

– لماذا ؟

فأجاب الأميرال مدنى.

أنا لا أفرق بين فارسى وعربى فى الإعدام.

ثم أضاف ساخرا :

– التفرقة موجودة فى كل شىء إلا الإعدام.

القبض على الشيخ شوبير الخاقانى

وقـبض اللواء مدنى عـلى رجل الدين السنى الشـيخ «شوبيـر خـاقانى» فى الثـمـانين من عمـره، وأعلن أن الشـيخ متـورط مع متآمرين وضـعوا قنبلة فى مسجده فى «خورمشـهر» وقد انفجرت القنبلة وراح ضحيـتها أربعة رجال، ثم اذاع أن الباسـدران عثروا عند تفتيش بيت الشيخ «شوبير» على مخزن للأسلحة !

وفى مناورة سيـاسية ـ ولا نقـول دينية ـ أعلن الخـومينى أن

يشمل الشيخ برحمته وأن ينقذه من أن يكون ألعوبة فى يد الإهابيين، وذلك، باعتقاله فى «قم» وتحديد مقر إقامته «ضيفا» على أحمد الخومينى ابن الإمام!

وبعد أن تم عزل الشيخ عن أقليم خوزستان، قال اللواء مدنى فى تصريح له مغزاه «على العرب أن يدركوا أنهم ليسوا وحدهم فى إيران».

كانت كلمات اللواء مدنى، تعيد إلى الأذهان مشاعر فارسية قديمة تحتفظ بمرارة كالعلقم من ذكريات غزو العرب لبلاد الفرس. إن العنصرية الفارسية مازالت كامنة مستعدة للظهور إذا ما اتيحت لها الفرصة.. وهذا هو تاريخ الفرس مع العرب منذ الفتح الإسلامى. ولقد شجعت العنصرية الفارسية الخوارج الذين قالوا إن الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أخطأ بقبول التحكيم بينه وبين معاوية بن أبى سفيان.

وفى الوقت نفسه شجعت العنصرية الفارسية الإمام على بن أبى طالب وأولاده ضد الحكم الأموى العربى.

الحرب الفارسية العربية

ولقد اتخذ الخومينى «السياسى» من الخصومة الفارسية العربية القديمة وسيلة للهجوم على أنظمة الحكم العربية. خاصة نظام الحكم فى العراق. ومن خلال «الهجوم فى الخارج» حصل على المبررات لتصفية المعارضة فى الداخل ـ بالاعتقال أو الإعدام» ليجمع الإيرانيين فى الداخل حول زعامته.

وكثيرون من علماء السياسة والاستراتيجية يؤكدون أنه لولا

الحرب ضد العراق، مـا استمرت جمهورية الخـومينى، فقد اتاحت له الحرب أن يسيطر بقبضة حديدية على مقاليد السلطة.

وانتـشرت فى ظل الحـرب لجـان الباسـدران حراس الثـورة، ولجان الجماعات الإسلامية، ولجان المـساجد، وكلها لجان شعبية تجند المعدمـين وتقدم لهم الطعام ومساعدات مـالية وتهيىء لهم أماكن للإقـامة، وذلك مقـابل استخدامـهم كقوات ضـاربة تفرض السيطـرة والرعب على من يريد أن يفكر أو يناقش تعـاليم الإمام. أو يتشكك فى الحلم الباهر الذى يدعو إلى تحقيقه الخومينى، وهو سيطرة الشـعب الإيرانى من خلال زعـامته على العـالم الإسلامى والعربى.

هجوم الباسدران

ولكن ضرب الذيـن يستخـدمون العقل والاعـتمـاد على القوى الباطشـة شبـه العميـاء أو الجاهلة من «حـراس الثورة» أدى إلى الاعتماد على خطط«بدائية» و «سـاذجة» لإدارة الحرب. فقد كانت استـراتيجيـة الخومينى قـائمة على أن «الشـهادة» هى أهم هدف، فوزع صكوك الجنة على الطيـارين، وعلى صبية فى الـباسدران، وتوالت هجـمات من يطلبون الشـهادة، تحـصدهم نيـران المدافع العراقـية. وكل مـوجة بشـرية تزف مقـدما إلى الشـعب الإيرانى الانتصـار الوشيك. هجوم مسلم بن عقيل، وهجوم فجر أول وثانى وثالث ورابع.. واستـمرت الهجـمات حتـى سقط أكثـر من مليون شهـيد. وبدأت جـبهـة القتال تفـتقـد أثمن ما يحـتاج إليـه جيش مـحارب، وهم الجنـود. وانطلقت دوريات من البـاسدران تجـوب

شوارع المدن والقرى وتدخل البيوت بحثا عن شبان تختطفهم لإرسالهم إلى ساحة القتال. بينما فتر حماس الرجال وقلقت الأمهات وارتاب الجميع فى صحة الدعوة إلى الشهادة حتى النصر.

فرحة لم تدم

ولكن فى عام ١٩٨٦ بدا وكأن الخومينى يوشك أن يحقق النصر الذى يحلم به. فقد هاجمت الزوارق المحملة بالباسدران الشاطىء العراقى، واستولت على شبه جزيرة الفاو.. واجتاز شط العرب مائه ألف رجل فى اتجاه أم القصر.

وتعرضت البصرة ومساحات شاسعة من الأرض العراقية لقذائف المدفعية الثقيلة. بينما كانت الصواريخ الإيرانية تسقط بين وقت وآخر على بغداد. وفى تلك الأيام العصيبة انتحر بعض الضباط العراقيين الذى لم يتحملوا نفسيا دخول القوات الإيرانية أرض الوطن.

ولكن الطيران العراقى استطاع عند تحسن الأحوال الجوية صد الهجمات المتوالية، خاصة تلك التى جاءت من الشمال فى السلمانية لتطوق العراق فى كماشة من الجنوب والشمال. واستطاعت الدبابات العراقية بالتنسيق مع القوات الجوية أن توقف الهجوم الإيرانى وقد تبين أنه اعتمد على صفقة أسلحة أمريكية توسطت لها إسرائيل فيما عرف بفضيحة «إيران جيت».

وكان الخومينى يهاجم العراق من الشمال والجنوب ويهاجم الأمة العربية من الجنوب فى العراق ومن الشمال فى لبنان. التى

تحـولت إلى قاعـدة لعمليـات العنف وتهديد الـغرب ومـساومـته باختطاف الرهائن الأمريكيين والأوروبيين الغـربيين ثم المساومة على الإفـراج عنهم مقـابل صـفقـات سلاح وقطع غـيار وعندمـا سقطت الصواريخ العراقية على طهـران ثم بقية مدن إيران خاصة قم وأصفـهان تحول الموقف بصـورة حادة، من توقعـات للنصر الإيرانى، إلى صدمة للشعب الإيرانى الذى ضـحى بشبابه وأمواله ليصل إلى هذه النتيجة الفاجعة.. سقوط الصواريخ عليه كالمطر.

الأنفاس الأخيرة

كان الخومينى لا يسـتطيع أن يتراجع عن الحرب، ولا يستطيع أن يواصلها. وكان على يقين بأن بقاءه فى السلطة رهن باستمرار الحـرب. ولم يبق إلا العناد. والاعتـمـاد على التطرف. ورفض كل مقـترحات ومـشروعات السـلام من الأمم المتحـدة. ورفض قرار مجلس الأمن رقم ٥٨٩ الذى يدعو إلى إيقـاف القتال والدخول فى مفاوضات سلام.

كـان الخومـينى يعلم أنـه قد ربط أنفـاسـه الأخيـرة بالثـورة والحرب. فلو توقف توقفت أنفاسه ولو استمر احتفظ بحياته.

وأعلن الخومينى تأييده للعناصر المتطرفة فى انتخابات مجلس الشورى الـجديد. وأعلن أنه مع الفـقراء. وألقى أحـمد الخومـينى خطاب أبيـه فى حفل افـتتاح البـرلمان، فـأعلن تمسكه بمـواصلة الحرب.

كان حماسا أشبه بصحوة الموت، فقد تلاحقت الهزائم وساءت الأحوال فى الداخل، فـتسـاءل تجار البازار عن السـبب فى نقص

البضائع. وانتشرت المظاهرات تشكو الحرمان أو ارتفاع الأسعار غير مكترثة بحماس المتطرفين، ولم تعد للباسدران تلك السطوة القديمة فقد تهشمت أسنانهم في الحرب وأعلن الخومينى منع المظاهرات - وسحب بعض قوات الجيش من ميادين القتال لمواجهة القلاقل في الداخل. ثم قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة يائسة انتهت بهزيمة معركة شرق بحيرة الأسماك، ثم طرد القوات الإيرانية من شبه جزيرة الفاو ثم الشلامجة، وأصدر الخومينى قراره بأن يتسلم رفسنجانى سلطات القائد العام نائباً عنه. لقد اختار رفسنجانى لأنه كان على اتصال بالولايات المتحدة فى صفقة الأسلحة. وهو أقرب رجاله ميلا للتفاهم مع الغرب.

وكان القبول بقرار مجلس الأمن وإيقاف القتال.

وهو قرار ينبىء بأن نهاية الخومينى قد اقتربت. وأنه يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

صراع السلطة

وعلى الفور بدأت معركة الخلافة فى انتظار موته. وكان آية الله منتظرى هو الخليفة الذى اختاره الخومينى، ولكنه استقال وتنكر للخلافة التى ترث نظام قام على الإعدام والتعذيب. هذا مع أن منتظرى كان يشرف على عمليات حزب الله فى لبنان.

وفى يوليو ١٩٨٨. أرسل منتظرى إلى الخومينى رسالة اتهام جاء فيها :

سعادتكم، آية الله المعظم، الإمام الخومينى مع تحياتى، فيما يخص أمركم الأخير بإعدام المنافقين المسجونين. إن الشعب

يتقبل إعدام من ألقى القبض عليه مؤخرا أثر الأحداث الأخيرة التى قام بها مجاهدى خلق فهذا لا يمثل ضررا فى الظاهر.. ولكن الوضع مختلف عند إعدام من كانوا فى السجن قبل الأحداث.

إن هذا يفسر على أنه قائم على الكراهية والانتقام ومعظم عائلات المسجونين مؤمنون وثوريون وسيبتعدون عنا. ومعظم المسجونين عدلوا عن أفكارهم السابقة ولكن المسئولين المتطرفين أصروا على إعدامهم. وفى المرحلة الحالية ونحن نتعرض لهجمات صدام حسين وهجمات المنافقين يعتبرنا العالم ووسائل الإعلام ضحايا. وليس من مصلحة النظام أو مصلحة سعادتكم قلب هذا الاتجاه. إن إعدام سجناء سبق الحكم عليهم بأحكام غير الإعدام وليست لهم جرائم جديدة بمثابة تحدى للأحكام ولحجية الحكم. وهناك العديد من الأبرياء أعدموا بعد أوامركم الأخيرة. والعنف والإعدام لم يثمر.. وأثار ضدنا الإعلام وكان لمصلحة المنافقين وأعداء الثورة ومن المفيد أن نظهر التسامح لنكسب التأييد. أما إذا كنتم مصرين على أوامركم فنطالب بأن تكون بالتصويت وبالإجماع بين القاضى والمدعى العام ومسئول المخابرات عند الإعدام وألا تعدم النساء خاصة أمهات الأطفال. إن إعدام آلاف الأشخاص فى الأيام الأخيرة سوف يكون له رد فعل.. وقد أصاب الحزن القضاة المؤمنين بسبب أحكام الإعدام والحديث النبوى الشريف يقول : «أدرءوا الحدود بالشبهات» فالإمام أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة.

حسين على منتظرى

٣١ يوليو ١٩٨٨

وتوالت رسائل منتظرى. تحدد موقفا سياسيا معارضا، حتى استقال. وكان هذا أسلوبه فى الاستعداد لكسب شعبه فى انتظار الخلافة. بعد أن واجه حربا عنيفة عندما اختاره الخومينى خليفة له. فقد تحالف هاشمى رفسنجانى وخاميئنى عليه وشهرا بأحد أقاربه وهو «مهدى هاشمى» فاعتقل بتهم الفساد والرشوة، ثم أعدم، وتلوث اسم منتظرى بهذا التشنيع وكان لابد له من أن يقوم بعملية مضادة لإنقاذ سمعته، فانتهز الفرصة لكتابة رسائله للخومينى ثم يستقيل.

خيوط السلطة
فى أصابع رجل يحتضر

ولقد ظل الخومينى يشرف على لعبة صراع الخلافة حتى لفظ النفس الأخير. فاستغل العداء بين منتظرى ورفسنجانى وبعد أن عين منتظرى فى الخلافة، دعم التيار الذى يميل إلى الغرب المتمثل فى رفسنجانى، فكان منتظرى يمثل تطرف حزب الله بينما رفسنجانى يمثل إمكانية الحوار مع أمريكا ودول الغرب.

ولكن لعبة السلطة عند الخومينى. كانت أكثر تعقيدا. فبينما كان يعتمد على منتظرى فى ناحية ورفسنجانى فى ناحية أخرى. أجرى اتصالات مع بنى صدر فى ٢٧ اغسطس الماضى يدعوه إلى العودة إلى إيران. والخومينى يعلم أن بنى صدر عندما كان رئيسا للجمهورية رفض تعيين رفسنجانى رئيسا للوزراء وقال إنه لا يصلح أن يكون وزيرا ولا نائبا لوزير فكيف أوافق على تعيينه رئيسا للوزارة ؟!

كان الخوميني يجمع الخيوط المتنافرة بين أصابعه حتى وهو يحتضر وكان يدير الصراع بين مجلس الوصاية الذى يرأسه محمد إمامى كاشانى، ومجلس الشورى الذى يرأسه رفسنجانى. ومجلس الشورى يسن التشريعات. ومجلس الوصاية يعطل إصدارها. لأنها ضد الشريعة - مثلا - ولقد سرى الموت إلى الأصابع التى تجمع بين هذه الخيوط، وإذا كان مجلس الوصاية قد اختار تنصيب خاميئنى زعيما روحيا فهذا لا يعنى أكثر من اسدال الستار - مؤقتا - على ما سوف يجرى فى الخفاء، وإن كانت الخصومات والعداوات بين القيادات التى تركها الخومينى، معروفة للجميع، ومازالت قواعد اللعبة فى السياسة.. **والدين** الإسلامى منها برىء.

الفصل الثانى

المنافقون باسم الإسلام

الحديث عن الإسلام والسياسة له أكثر من مجال ولكن أهمها في تصوري، هو موقف الإسلام من القوى السياسية الكبرى في عالم اليوم. فالإسلام ليس مجرد ذكريات وتاريخ، بل هو قبل كل شيء ممارسة للحياة. والسياسة ليست بدورها مجرد ذكريات وتاريخ، وإنما هي ممارسة للحياة. وإذا كان الإسلام عقيدة دينية يحكمها منهج إلهي، فالذي يحكم السياسة حتى يومنا هذا هو قانون الغلبة.

ولابد من الاعتراف بالواقع، وهو أن قوى الحضارة الأوربية الغربية قد تغلبت على قوى الشعوب الإسلامية، واحتلتها عسكريا، وتفوقت عليها حضاريا. هذا كلام واضح، لا ينكره ألا من يريد أن يعيش كالنعام، يدفن رأسه في التراب حتى لا يرى أخطار الواقع وتحدياته.

والمجتمعات الإسلامية، التى تغلبت عليها سياسيا وعسكريا قوى الحضارة الأوربية سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية، واجهت الهزائم فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، حتى القرن العشرين. وهى فى تصورها، تطبق أحكام الشريعة الإسلامية، وتتبع منهج الدين وتتمسك بتقاليده وتعاليمه.

ولقد واجهت مجتمعاتنا الإسلامية، هذه الهزائم السياسية العسكرية. منذ أيام نابليون بونابرت بأحد موقفين رئيسيين. موقف ينادى بالاصلاح الدينى، وفتح باب الاجتهاد، واتهام المجتمع الإسلامى الذى يزعم بأنه يطبق الشريعة الإسلامية، بالجمود والتخلف، وعدم فهم الإسلام كما ينبغى. والذى تبنى دعوة التجديد والإصلاح هذه، هو جمال الدين الافغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده.

وفى مقابل هذا، قام آخرون يطالبون بالأخذ بالثقافة الأوربية، وأن ندرسها وأن نأخذ ما يفيدنا منها. ولقد اهتم أغلب هؤلاء، بالنظريات والفلسفات الأوربية، كما لو كانت أوربا هى هذه النظريات، وليست مجتمعات بشرية، وصلت إلى نظرياتها وحققت فلسفاتها من خلال تجارب بشرية، وأزمات واجهها الناس فى حياتهم اليومية، لا فى صفحات الكتب، التى ينقل عنها مفكرونا الكبار.

ولقد حدث للأسف الشديد، صراع بين التيارين، أو الموقفين الرئيسيين، فانصار التجديد والاصلاح الدينى، ساروا فى طريق، وأنصار الأخذ بالثقافة الأوربية ساروا فى طريق، فأصيب

المجتمع بازدواج معطل فى الثقافة، لا يسمح بتطوير سليم لهذه الثقافة أو تلك، وكان أخطر وسائل العلاج لهذا الازدواج، تلك الدعوة للتوفيق بين الثقافتين، ثقافة إسلامية عربية، وثقافة أوربية. وهى دعوة شديدة الغموض، لا تفلح فى أغلب الأحوال، إلا فى اخراج مثقفين منافقين أو انتهازيين، يستطيعون الحديث بلغة مزدوجة، وبوجهين، وجه إسلامى أحيانا، ووجه أوربى غربى أحيانا، دون أن تكون هناك اصالة حقيقية لهذا الوجه وذاك.

والمشكلة كما أتصورها، لا تبدأ من الثقافة، سواء كانت إسلامية أو أوربية، وإنما تبدأ من الإنسان ذاته، وهل هو مؤهل لاستخدام ملكاته العقلية، بحيث يستطيع أن يواجه مسئولياته على أى مستوى، مواجهة صحيحة.

المطلوب أولا، القدرة السليمة على التفكير. وليس المطلوب أولا عملية توفيق بين ثقافتين. أو اللجوء إلى أساليب النعام بدفن رؤوسنا فى تراب الماضى وذكرياته. أو اللجوء إلى أساليب القرود. نقلد ما نراه فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والمتفوقة عسكريا وماديا. دون أن نستوعب معنى التقدم الذى نقلده، ونخضعه لما تصلح به حياتنا.

وهناك من فقد الثقة تماما فى كل هذا، فرفض الحاضر بكل مشاكله وزعم لنفسه، أن العلاج فى الدعوة هو استرجاع أيام السلف الصالح، والعودة إلى مجتمع الخلفاء الراشدين.

ولست أدرى ما صلة الدين بهذه الدعوة ؟!

إنها أولا دعوة مستحيلة، فالماضى لا يعود، واعادة أيام

السلف الصالح ضرب من الوهم، وحنين رومانتيكى ساذج إلى ذكريات مهما كانت روعتها وأمجادها، إلا أنها ستظل مجرد ذكريات، وإذا كان المطلوب هو أن نعود إلى القيم التى تعامل بها السلف الصالح، واتباع قواعد سلوكهم، فالمطلوب أيضا عودة نفس النماذج البشرية المثالية التى عرفتها مجتمعات ذلك الزمان الذى انقضى. ومن يستطيع أن يسترجع إنسانا كأبى بكر الصديق، أو عمر بن الخطاب، أو على بن أبى طالب، أو عثمان بن عفان.

وحتى لو استعدنا واسترجعنا هذا المجتمع بشخصياته، وهذا لا يدخل فى باب الدين والإيمان، بل يدخل فى باب استحضار الأرواح. فإننا لا نستطيع أن نستعيد أيام أبى بكر، دون أن نستعيد حركات الردة ومسيلمة الكذاب.. ولا نستطيع أن نسترجع أيام عمر دون أن نسترجع قاتله، والذين عارضوه، وكرهوا أيامه، ومن بينهم مجتمعات إسلامية توارثت هذه الكراهية حتى يومنا هذا. فمن يستطيع أن ينطق باسم عمر فى البصرة بالعراق، أو يسمى ابنه باسم عمر فى إيران.

وكذلك الذين يحلمون باستعادة أيام على، لن يهربوا من عودة الخوارج والأمويين، والذين سفكوا دماء على وولديه الحسن والحسين وذبحوا أهله وعشيرته.

ولا نستطيع أن نستعيد أيام عثمان بن عفان، دون أن نستعيد الفتنة. والنزاع الدموى على توزيع الثروات. ومن هو أحق بأموال المسلمين.

إن حديث استعادة الماضى، ليس حديثا فى الدين، وهو وهم مستحيل. وأيضا وهم خادع ومضلل، يروح ضحيته آلاف من المسلمين تضيع أيامهم فى انتظار الوهم الذى لن يتحقق، وتتعطل طاقاتهم وتتبدد جهودهم وهم فى حالة الانتظار.

الذين ينادون باستعادة الماضى يزيفون التاريخ، ويتجاهلون الأحداث التى جرت، والتناقضات والصراعات التى نشبت والتى واجهها الرسول عليه السلام، وهو يؤدى رسالته.

ولقد حدثنا الشهرستانى عن هذه الصراعات، والتى تسبب فى معظمها المنافقون.

وأخطر أنواع المنافقين، أولئك الذين يتظاهرون بالغيرة الشديدة على الإسلام. ويتشددون فى المطالبة بتطبيق الشريعة.

ولعل قصة ذى الخويصرة التميمى لها دلالتها. فقد ذهب هذا التميمى متشنجا إلى الرسول عليه السلام وقال له :

- اعدل يا محمد فانك لم تعدل.

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

- إن لم أعدل فمن يعدل ؟

فعاود اللعين قائلا للرسول عليه الصلاة والسلام :

- هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى.

فكأن هذا التميمى المتشنج والمتحمس للعدل، يهتم به، ويدافع عن وجه الله تعالى. أكثر من الرسول !

وهذا مثل على نموذج معروف فى النفاق. ومثله وجدناه فى

معركة أحد بين الذين انتقدوا الرسول بعد المعركة وقالوا :

لو كان لنا من الأمر شيء.. ما قتلنا ها هنا.

ويقول الشهرستاني : هذا ما كان في زمان الرسول عليه السلام وهو على قوته وصحة بدنه. والمنافقون يظهرون الإسلام، ويبطنون النفاق.

حتى في اثناء مرض الرسول وهو في فراش الموت، روى البخارى أن الرسول طلب دواة وقرطاسا، ليكتب كتابا يوجه فيه نصائحه الأخيرة للمسلمين حتى لا يضلوا بعده.

فقال عمر : إن رسول الله عليه الوجع، وحسبنا كتاب الله وكثر اللغط بين الصحابة واختلفوا. فأمرهم النبى وهو في فراش مرضه أن يغادروا حجرته قائلا :

– لا ينبغى عندى التنازع.

وكان ابن عباس يرى في تصرف عمر، رزية رزء بها المسلمون إذ حال بينهم وبين الكتاب الذى كاد أن يمليه الرسول عليه السلام.

والخلافات بعد وفاة الرسول اشتدت بين المسلمين، حتى إننا لو راجعنا تاريخ الإسلام، لوجدنا دماء المسلمين التى اريقت بيد المسلمين، أكثر مما أراقته ايدى الأجانب.

إن الذين يزعمون أنهم قادرون على استعادة أيام السلف، وأيام الخلفاء الراشدين. أشبه بالمنافقين الذين يتظاهرون بالغيرة والحماس. ويطالبون «بالمناظر» و «المواقف» التى تستثير الحماس والنشوة، ولو كانت قلوبهم تعرف الإيمان الحقيقى،

وعقولهم قد اقتنعت بحقيقة الدين ومنهاجه، لانصرفوا إلى الحاضر يواجهونه بضمائرهم وعقولهم المؤمنة. التى لا تتهرب من الواقع الذى سبق وإن هزمها. لا تتهرب من الصاروخ إلى الناقة ومن القنبلة الذرية إلى السيف. فهذا هو الخداع الذى يلغى العقل ويلغى بالتالى الدين، ولا يحفظ منه إلا مشاهد تاريخية يعيش بها الناس مضللين.

إن الممارسة الحقيقية للعقيدة تكون من خلال إعمال الفكر فى قضايا الحاضر. لا مجرد الاعتماد على تذكر أحداث وقعت فى الماضى. ومحاولة لوى ذراع الحاضر وضغطه فى قالب الماضى، ثم محاولة الكذب على الماضى، وتصويره، وكأنه كان خاليا من الصراعات والخلافات والمشاكل ومظاهر الضعف الإنسانى فى كل صورها وأبعادها.

إن النفاق، هو الذى يزين الماضى اليوم، كما لو كانت أيام فجر الإسلام وصدره، نعيما خالصا، ومجتمعا نموذجيا مثاليا.

ولن نستعيد عقولنا، حتى نتخلص من هذا الوهم. ولن نتغلب على الهزال الفكرى الذى انتشر بيننا، حتى ندرك أننا فى حاجة إلى عقولنا، وأنها أهم من مجرد تقليد ما قرأناه أو سمعنا به عن أيام مضت.

ولن نخرج من ظلمات الجهل والنفاق، حتى ندرك أن التقوى الصحيحة، هى تقوى العقل، وتلك التى يدعمها العلم.

أما تحويل الناس إلى مجرد أنفار وأرقام، متشابهة، فى الملبس وفى إطلاق اللحية، وفى ترديد نفس الكلمات، والمناداة الصارخة

المتشنجة بنفس الشعارات باسم التقي والورع. وتحويل النساء إلى شياطين شهوة، لابد من اعتقالها داخل حجاب سميك، وإعلان أن مجرد صوت المرأة قد يكون فتنة، والذى يقرر ذلك أى رجل مصاب بهوس أو مرض نفسي، فلن يؤدى هذا إلا إلى تحويل مجتمعات المسلمين إلى مجتمعات عبيد. سادتهم يعيشون فى قصور باذخة فى الاندلس وشواطى جنوب فرنسا وإمارة موناكو، وقصور هوليود ودالاس ولاس فيجاس.

وقد استراح هؤلاء السادة تماما إلى ما وصل إليه هؤلاء المسلمون فقد تحولوا إلى إمعات لا تفكر يحكمها باسم الشرع طغاة قساة لهم دعاة متشنجون، يزعمون أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

هذا هو ما يتمناه اعداء الإسلام التقليديون. وما أكثرهم فى الغرب والشرق. وما أكثرهم بين من يزعمون نفاقا أنهم سادة بين المسلمين أو بين العرب.

جماعات إسلامية.. أم بيادق فى صراع السياسة العالمية

تتعامل القوى السياسية الكبرى فى العالم مع المجتمعات الإسلامية، باعتبار أن الإسلام ليس عقيدة دينية تصلح لجميع البشر. بل هو حضارة مرتبطة بمكان جغرافى !

لذلك تجد كثيرين، يعقدون المقارنات بين الإسلام وأوروبا. أو يتحدثون عن الإسلام فى آسيا، أو افريقيا، وكأن الإسلام مجتمع جغرافى له حدوده لا يتعداها. مع أن الإسلام جاء لهداية الجميع،

سواء كانوا من سكان الاسكيمو فى القطب الشمالى، أو من سكان الغابات فى خط الاستواء !

وهناك عجز فاضح فى الحضارة الغربية الأوربية، فى فهم الإسلام وحقيقته، وهم يقولون عن المسلمين، إنهم اتباع «محمد» باعتبار أن الرسول ﷺ قائد عظيم، وسياسى عبقرى، وزعيم روحى، ولا يزيد على ذلك !

وأحيانا يتحدثون عن المسلمين، قائلين إنهم الاتراك، ويستعملون كلمة «تركى» كمرادف لكلمة «مسلم» وغالبا ما يتهمون «الاتراك» بأنهم طغاة مستبدون، وأنهم أصحاب طباع عدوانية، وأمزجة شرسة، ويقولون إن الإمبراطورية العثمانية، هى أسوأ وأبشع نظام حكم استبدادى فى تاريخ البشرية.

وهذا التصور من جانب الغرب، شارك فيه مفكرون كبار من أمثال «مونتسكيو» صاحب نظرية فصل السلطات. السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية. فقد هاجم الاستبداد الذى مارسه سلاطين آل عثمان الذين كانوا خلفاء للمسلمين.

ولكن فولتير، كان مفكرا حرا شريفا، فقرأ عن الإسلام جيدا، ودافع عنه دفاعا قويا... واعترف به عقيدة إنسانية سماوية تدعو للعدالة، ولا ينبغى اتهامها بأنها تدعو لحكم استبدادى. وقال إنه حتى بين سلاطين آل عثمان، كان بينهم رجال على مستوى رفيع من التقوى والعدالة والثقافة. وقال أيضا إنه لا يوجد نظام حكم فى العالم بأسره، يخلو تماما من شبهة الاستبداد بدرجة ما.

وليس غريبا أن دفاع فولتير عن الإسلام، لم يلق تشجيعا من

الناشرين أو المؤرخين فى الغرب. وتجاهله تماما المستشرقون الذين كانوا يدرسون المجتمعات الإسلامية لخدمة أغراض الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين.

وبلغ من سوء فهم الغرب للمجتمعات الإسلامية، أنه وضع مقاييس للتقدم الحضارى خاصة به، وأراد أن يطبقها على مجتمعاتنا، فإذا لم تنطبق عليها المقاييس الغربية. فهى مجتمعات متخلفة. والغرب فى هذا، أشبه بمن يريد أن ينظر إلينا، فلا يرى صورتنا الحقيقية، بل يرى صورته هو، وكأنه ينظر لنفسه فى المرآة. وهذا أمر مستحيل.

وهكذا سادت فى الغرب، أفكار خاطئة، ولكنها ثابتة عن المجتمعات الإسلامية، باعتبارها مجتمعات استبدادية متخلفة، وأنها تمثل حضارة تاريخية انتهى زمانها، مثلما انتهت من قبل الحضارة الفرعونية، أو الحضارة الإغريقية !

وترتب على ذلك، أن جماعات من اليهود «الاسكنازيين» من أبناء الحضارة الغربية، استطاعوا أن يتحالفوا مع قوى الغرب، وأن يزعموا أنهم وحدهم القادرون على حمل مشعل الحضارة فى الشرق الأوسط، فى وجه الطغيان والاستبداد. ومن الأقوال المشهورة التى يرددونها فى إسرائيل، أنهم ممثلو حضارة الغرب، الذين يحافظون عليها.

ويترتب على ذلك، أن الشائع فى الغرب، أن بلادنا ستظل متخلفة، لأنها تؤمن بعقيدة الإسلام، وأن هذا التخلف يشمل مساحة جغرافية بامتداد المجتمعات الإسلامية.

وحـتى الآن، لا تجـد القـوى السـياسـيـة الكبـرى فى العـالم ما تخشاه، بصـورة جدية مما يسمى باليقظة الإسـلامية، بل إنها تعمل علـى الاستفـادة منها، والتسلـل إليها للتـأثير عليـها، وعلى قيادتها.

وأول صور اسـتفادة الغـرب مما يسـمى باليقظة الإسلامـية، كانت فى تركيا فى الخمسينيات، بعـد الحرب العالمية الثانية، فقد ظهرت الدعـوة للرجوع إلى الإسـلام، باعتـبار أن كـمال اتاتورك، كان علمـانيا، وضربت جـماعات مـتطرفة، عصـمت اينونو، رفيق الكفـاح مع اتاتورك، بالحـجـارة، وحـدث أن كـان رئيس الوزراء «عدنـان مندريس» فى طريقه إلى مـؤتمر ينعـقد فى لندن لبـحث القضـية القبـرصية، فـتحطمت طائرته بالقـرب من «جاتويك» فى انجلترا ولقى خمسة عشر من مرافقيه مصرعهم على الفور، ونجا «عدنان مندريس» بأعجوبة، فعـاد إلى تركيا، كواحد من أولياء الله الصـالحـين من أصـحاب الكـرامات فى مـوجـة من الدعـوة إلى الإسلام، تطورت إلى زيارة الرئيس الأمريكى ايزنهاور إلى تركيا، وتحالفا مع أمريكا ضد العدو السوفيتي، وتكشف الحماس الدينى، عن عملية سياسية ضد العلمانية والشيوعية !

أما فى الثمانينيات، فنحن نشـهد تجربة «الثورة الإسلامية» فى إيران، التى تحـارب مسلمـين آخريـن بأسلحة أمـريكية، تحـصل عليها، أو على قطع غيارها من إسرائيل.

ويقـول «آيات الله» للصبـيـان الذين يخـوضون الحـرب، إنهم يسـتشـهـدون فيـدخلون الجنة. ولكن الذين يمـدونهم بالسـلاح

يقولون لأنفسهم، إن الذى ينتصر هو السلاح الذى نبيعه، والذى يكسب هو صناعة السلاح.. والذى يجنى الأرباح هو تاجر السلاح أما هؤلاء الذين يستخدمون السلاح، ويموتون، فهم فى كل الأحوال تحت رحمة سلاحنا.. ولا بأس أن يهلكوا، أو تضعف قدراتهم.. وتستنزف دماؤهم، وهم يقاتلون بعضهم بعضا.. وليرفعوا الشعارات باسم الإسلام.. ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والالحاد.. وليزعم بينهم من يزعم بأنه صاحب الكلمة العليا فى شئون دينهم. فكل هذا لن يصمد في وجه قوتنا الجبارة، التى تستطيع إبادة البشر جميعا فى تلك المنطقة من العالم.

وطبيعى، أنهم يدركون بالمقاييس العلمية الموضوعية، أن الدعاوى التى يتبناها أولئك الذين يزعمون أنهم يقودون المجتمعات الإسلامية إلى الصلاح والفلاح، إنما هى دعاوى سطحية، ليس لها شأن أو خطر.. فى حد ذاتها، وهى بعيدة تماما عن أن تعيد لهذه المجتمعات قوتها، كما كانت فى الماضى.. عندما كان المجتمع الإسلامى، يقود الفكر العالمى، ويطوره، ويعيد صياغته، سواء كان فكرا يونانيا، أو هنديا، أو فارسيا. أما الدعاوى السطحية التى يدعون إليها الآن، فهى وإن اتخذت من الإسلام قناعا.. إلا أنها تعكس ظاهرة الجهل والمرض والفقر فى تلك المجتمعات. وهى علامة من علامات تخلفه، وليست علامة من علامات صحته وتقدمه. وهى تعبر عن غضب وضيق، من جماهير محرومة من العلم، حاصرها الفساد وانقطاع سبل الرزق الشريف، حتى وصلت إلى مشارف اليأس. فأصبح من السهل انصياعها وراء دعوة باسم الدين. لا يعلم إلا الله وحده، مَنْ سوف يستفيد منها فى نهاية الأمر.

وهناك رأى قوى، يتبناه مراقبون سياسيون فى الغرب، أنه لابد من مراقبة ومحاصرة هذه البلاد.. مع مراعاة أن أوضاع المسلمين وأفكارهم.. لن تخرجهم من التخلف الذى يعانون منه. وأن هذا التخلف إذا كان مفيدا من ناحية إنه لا يطور هذه المجتمعات، بحيث تصبح ذات قوة سياسية عسكرية كبرى تنافس الغرب أو تزعجه. إلا أن هذا التخلف.. يخلق من ناحية أخرى فراغا، إذا لم يهيمن عليه الغرب، فلابد أن تهيمن عليه الشيوعية.

وقد تتحول الجماعات التى تزعم أنها إسلامية، إلى قوة مدمرة.. وتحطم النظم القائمة.. والأوضاع السائدة فى المجتمع، ولكنها فى نهاية الأمر، لابد ـ مثل أى ثورة ـ أن تحرق نفسها بنفسها.

وهكذا تتناول النظرة إلى التيارات الدينية، مواقف الجماعات التى تدعو إليها، وقياداتها التى تحشد الناس حولها، باعتبار أنها بيادق على رقعة الشطرنج.

واحتمالات عقد الصفقات السياسية، قائم باستمرار، مع هذه القوة العظمى أو تلك.

ولتحلم الجماهير كما تشاء، فى باكستان.. أو فى إيران، أو فى السودان. أو فى أى دولة إسلامية، بأمجاد الإسلام وعظمته، وقد تعبر الجماهير عن طاقاتها المكبوتة البائسة.. بالهدم والتدمير وسفك الدماء.. فهذا شأنها، وإذا أرادت أن تنتحر، فلتنتحر.. المهم أن تستمر السيطرة على الأرض، كموقع جغرافى استراتيجى بين قلب القارات الثلاث.. أوربا وآسيا وأفريقيا. وأن تستمر السيطرة

على الأرض المدفون فى أعماقها أكبر احتياطى من النفط فى العالم. فهذا هو الهدف المنشود، حتى إذا هلك جميع البشر على تلك الأرض.

الإسلام والشيوعية

ماذا يقول التاريخ ؟

التاريخ يقول، إننا لو نظرنا إلى خريطة العالم الجغرافية، وحددنا المساحات الجغرافية التى حكم فيها الإسلام ومارس سلطاته، لوجدنا أن أغلب هذه المساحات، قد أصبحت خاضعة لأنظمة حكم شيوعية.

مثلا :

تلك المساحات الكبيرة من خريطة العالم التى تحتلها أوربا الشرقية، إنها نفس المساحة التى كان يحكمها خليفة المسلمين السلطان العثمانى المسلم، الذى كان يحكم رومانيا وبلغاريا والبلقان ـ اليونان وجمهوريات الاتحاد اليوغوسلافى وألبانيا، ووصلت جيوشه إلى مشارف فيينا عاصمة النمسا.

وتكاد تتطابق خريطة الحكم الإسلامى فى شرق أوربا أيام العثمانيين، مع خريطة الحكم الشيوعى.

وهناك استثناءان واضحان فى أوربا، لهذه القاعدة، التى تطابق بين الحكم الإسلامى فى الماضى، والحكم الشيوعى، بالنسبة لأوربا.

أولهما : أسبانيا التى حكمها المسلمون زهاء ثمانية قرون، فهى ليست شيوعية الآن.

وثانيـهـما : الـيونان، التـى لم تستـقل عن الحكـم العثـمـانى الإسلامى، حتى القرن التاسع عشر، فهى ليست شيوعية.

ولكن هذين الاستثناءين، فى نظر هؤلاء المراقبـين السياسيين، يثبتان القاعـدة، أكثر من غيرهما، لأنه فى كلتا الحالـتين ـ أسبانيا أو اليونان ـ كـان المجتمع سـيتحـول بالفعل إلى الشيوعـية، لولا تدخل قوى عسكرية خـارجية، قاومت هذا التحول إلى الشـيوعية، وأوقفت مسيرته بالقوة.

حدث هذا فى أسبانيـا، عام ١٩٣٦، عندما تولت الحكم حكومة شـيـوعيـة، فـتـدخلت قـوات هتلر النازية، وقـوات مـوسـولينى الفاشستـية، فى حرب أهلية لضرب الحكم الشيـوعى فى اسبانيا، وكانت هذه الحرب، هى التى أبعدت الشيوعية عن اسبانيا.

ونفس الشىء حـدث فى اليونان، فى أعـقاب الحـرب العالمـية الثانيـة، فقـد اندلعت ثورة أعلنت قيـام حكومة شـيوعـية، ولولا تدخل الجيوش البريطانية التى أرسلها تشرشل على عجل لتحارب الشيوعيين، لكان الأمر قد اختلف ولدخلت اليونان مجموعة الدول الشيوعية الأخرى فى البلقان وشرق أوربا.

الاستـثناء اذن، أثبت القـاعدة، فحـيث كان يحكـم الإسلام فى أوربا، انتهى الأمـر إلى حكم شيـوعى، فيـما عدا حـالتى اسبـانيا واليونان، وكـلاهما لجـأ إلى قوات خارجـية لتمنع تطـبيق الحكم الشيوعى الذى استولى على الحكم لفترة بالفعل.

ومثل آخر من التاريخ:

فى آسيا تعيش المجتمعات الإسلامية فى وسطها وعلى امتداد

هذه القارة الضخمة ذات المساحات الهائلة فى سهول ممتدة من تركيا وإيران غربا، حتى حدود الصين شرقا، وقد تحولت المجتمعات الإسلامية فى هذه المناطق إلى الشيوعية، وأصبحت جمهوريات فى الاتحاد السوفيتى.

وآخر تجربة، مرت بها هذه المجتمعات الإسلامية فى وسط آسيا، هى التجربة الافغانية حيث استدعى الحزب الشيوعى الحاكم، قوات الاتحاد السوفيتى، ليستعين بها لتدعيم حكمه على البلاد.

وحيث توجد تيارات تزعم أنها إسلامية، يتوقع المراقبون السياسيون، وجود تيارات شيوعية.. ولقد كان موسولينى يقول : إن تحت القمصان الفاشستية السوداء التى يرتديها أعضاء حزبه، تختفى القمصان الشيوعية الحمراء. ويقول المراقبون السياسيون فى الغرب : إن تحت التيارات التى ترفع الدعاوى - المختلفة أو المتناقضة - باسم الإسلام، تختفى تحت تيارات شيوعية.

ومن أعجب ما قرأت، فى تفسير انتشار الشيوعية فى ايطاليا، وقوة الحزب الشيوعى فى جنوب ايطاليا بالذات، هو أن هذا الجنوب قد وصل إليه الحكم الإسلامى أيام الأمويين، وقد احتلوا صقلية وجنوب ايطاليا. ولذلك تهيأ - منذ ذلك الزمن البعيد - المناخ النفسى والاجتماعى، لقبول الفلسفة الشمولية الشيوعية، بعد أن عرفت هذه الاقاليم فى الماضى، شمولية الإسلام.

ولو سألنى أحد، ما رأيك فى هذا الكلام، لقلت : إنى اعترض عليه، رغم أنه قد يبدو مقنعا لأول وهلة.. ولكنه يكتفى بنظرة

سطحيـة، تعقـد صلة فيهـا تعسف شـديد، بين دين ومنهج إلهى، ونظام حكم سياسى.

فالإسلام، ليس حقيقة جـغرافية. إنه منهج إلهى لكل البشر فى كل مكان. والاقرب إلى العقل، هو أن جميع البلاد التى كانت تحت حكم الإســلام، تمـثل بصورة أو أخـرى، حـضـارة مخـتلفـة عن حضارة الغرب الأوربى المـعاصر، وذلك بصرف النظر عن الديانة المنتشرة فى الغرب أو الشرق.

واختـلاف الحضارات، هو الذى يـفرق بين المجـتمعـات، وقد يميز بينها، أو يقيم العداوات بينها.

والحكم الإسلامى فى كل العصور، منذ أيام الخلفاء الراشدين، حتى أيام الخلافـة العثمانية، كان يشمل مـجتمعات غيـر إسلامية كثيرة، ولها حضارات متعددة، من فارسية أو هندية أو يونانية أو فرعونية، فكان أشمل من الحضارات ومن المساحات الجغرافية.

ولكن الحروب والصـراعات بين الحضارات، كـانت تقع، حتى بين أصحاب العقيدة الواحدة، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين.

فـالحرب الصـليبيـة، التى كان طابعـهـا المميـز، هو الدين، وشعارها انقاذ بيت المقدس، كانت فى حقيقتها حروب غزو ونهب وسلب بين أبناء حضارات مخـتلفة، بصرف النظر عن الدين، حتى لو كان يجمع بينهم.

بدليل أن أكـبر عـملية نهب للكنائس والكـنوز المسـيحيـة فى بيزنطة فـى الشرق، تلك التى قام بـها الصليبـيون القـادمون من الغرب ! فـبعـد أن حشدوا حـشودهم، واكـتملت قـواتهم، وأخذوا

تمويلـهم وتموينهم من تجـار البندقيـة. خطر لهم أن الغنائم التى سوف يحصلون عليها من نهب كنوز بيزنطة المـسيحية، أكبر من أى غنائم وأسلاب يـحصلون عليهـا وهم يحررون بيت المـقدس، فاتجهوا بسفنهم إلى القسطنطينية ونهبـوها ونهبوا كنائسـها فيما وصفه المؤرخون أبشع عملية نهب فى التاريخ.

وبالمـثل، كـان أخطر ما تعـرض له المـسلمـون فى الأندلس، وجرجـان، وبخارى، وسمـرقند، هم قبـائل المسلمـين، والحروب التى لا تنقطع بين «امرائهم» و «سلاطينهم».

فـالحضـارات، هى التى تختـلف، وأسبـاب الرزق والمصـالح الدنيوية، والطـمع والجشـع، والرغبـة فى الحصـول على الثروات، هى التى تثير الفتن والحروب.

وقانون الغلبة للأقوى، هو القانون الذى فرض نفسه فى تاريخ المجتمعات الإسلامية أو غير الإسلامية.

أما الدين ـ فى هذا المجال ـ فهـو للأسف الشديد، يتحول عند أصحـاب الأطمـاع إلى شعـار يرفعـونه لحشـد الناس، وإثارتهم وتحريكهم، كوقود فى معارك لصالحهم.

ومـا أكثـر السذج والمـطحونين، أو أصـحـاب النوايا الطيبـة، والاحلام البسيطة فى حـياة أفضل باسم الدين، ولكن الطريق إلى جـهنم ـ كـما يقـولون ـ مـفروش بـهذه النوايا ومـغطى بأشـلاء أصحابها، الذين انصاعوا لمن قادوهم إلى التهلكة.

وإذا كان الـرأى الذى يتردد بين المـراقبـين السيـاسيـين فى الغـرب، هو أن المجـتمـعات الإسـلاميـة، هى التى تمهـد الأرض

السياسية للهيمنة الشيوعية، فالغرض واضح من ترديد هذه المقولات.

فهى دعوة صريحة إلى عدم الثقة فى هذه المجتمعات من جانب قوى الغرب السياسية، مهما كانت الأسباب.

ولعل هذا يفسر لنا الارتباط الاستراتيجى بين إسرائيل والولايات المتحدة، فإسرائيل تمثل مجتمعا غير إسلامى. وهو بذلك محصنة ضد الشيوعية، على عكس المجتمعات الإسلامية المحيطة بها !

وإسرائيل تستفيد من الترويج لهذه الأفكار فى الغرب، فطالما ظلت قناعة المفكرين والقادة السياسيين فى الغرب. إن المجتمعات الإسلامية قد تتحول فى أية لحظة إلى الشيوعية لسبب أو آخر. سيظل اعتمادهم مطلقا على إسرائيل. وسيفضلون تحمل ما يصيبهم من أضرار نتيجة تحيزهم لإسرائيل، على أن يخسروا المنطقة بأسرها بتحولها إلى الشيوعية إذا أفلت الزمام من حكامها. وهو أمر محتمل فى تقديرهم، وعلى ضوء ما يتابعونه من أفكار متخلفة، ودعاو جاهلة تزعم أنها تتحدث باسم الإسلام، وتتنبىء فى تقدير قوى الغرب بأن هذه المجتمعات لن تستطيع أن تصمد حضاريا فى صراع القوى فى عالم اليوم.

وبعد سقوط الشيوعية استمر الاتهام موجها للإسلام. بأنه العدو البديل للشيوعية فإذا لم تتحول الشعوب الإسلامية إلى الشيوعية فهى ستتحول إلى قوى معادية تريد استعادة سيطرة الإسلام على العالم وهذا أخطر من الشيوعية على حضارة العالم. ولذلك يجب التصدى له ومحاصرته بكل قوة.

الطائفية والتعصب

إذا صحت القاعدة التى تقول إن كل فعل له رد فعل، مساو له فى القوة، ومضاد له فى الاتجاه. فإن الكثير من مظاهر الأزمة التى تعانى منها المجتمعات العربية الإسلامية اليوم هى ردود أفعال للسيطرة والغزو الاستعمارى عليها فى القرن الماضى.

لقد كان تمزيق العالم العربى الإسلامى، وتوزيع أراضيه على القوى الأوروبية الغربية هو أهم مشاغل ساسة وحكام أوروبا فى القرن التاسع عشر.

وفاز بنصيب الأسد فى الأسلاب والغنائم، الأسد البريطانى، الذى كان، فى ذلك الوقت، أقوى الحيوانات السياسية الاستعمارية فى الغاب. فاستولت بريطانيا، على كل الممرات والأراضى التى تعيش فيها مجتمعات عربية إسلامية، فى الطريق بين أوروبا وآسيا.. وكانت الهند أكبر جوهرة فى القارة الأسيوية، والتى حكمها المسلمون لعدة قرون، مطمعا دائما للساسة البريطانيين، واعتبروها جوهرة فى التاج البريطانى، يؤمنون طرق الوصول إليها، بدءا من جبل طارق عند مدخل البحر الأبيض المتوسط فى الغرب، إلى مالطة وقبرص، ثم مصر وقناة السويس، عند اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر، وفلسطين، والسودان، وعدن عند مدخل البحر الأحمر فى الجنوب وامارات الخليج والعراق. وكلها بلاد تعيش فيها مجتمعات إسلامية عربية. سيطرت عليها بريطانيا، كمواقع هامة، وقواعد لا غنى عنها، لمن يريد أن يسيطر على العالم.

وكان هدف السيطرة، أهم من **أى شىء** آخر حتى لو كان فيه قهر أو ظلم لسكان هذه الأراضى.

وحتى يبرر المستعمر أفعاله العدوانية، زعم أنه جاء إلى هذه المجتمعات، ليدخل عليها الحضارة، وأسباب المدنية، ولأنها مجتمعات متخلفة. وإذا كانت عقيدة غالبية سكان هذه المناطق هى الإسلام، فليكن الهجوم أيضا على هذه العقيدة، باستخدام فرق من «المستشرقين» يقومون بتصوير وصياغة المجتمعات الإسلامية وتراثها الثقافى، كما لو كانت هذه المجتمعات ولا صلة لها بكنوز الثقافة الإسلامية، التى لا يستطيع أحد أن يتجاهلها، بفنونها وصناعاتها، ومعمارها، وبما حققته من انجازات علمية فى الفلك وعلم الجبر والبصريات والكيمياء والطب والصيدلة كل هذا التاريخ الحضارى، تحدثوا عنه، كما لو كان نتاج حضارة أخرى غير حضارة العرب، وكما لو كان الذين حققوه، أبناء عقيدة أخرى، غير عقيدة الإسلام.

وتنافست دول أوروبا فيما بينها، على انتزاع هذا الجزء من الأراضى أو ذاك، حيث يعيش المسلمون، فجاءت فرنسا واستولت على المغرب، بطول شاطىء شمال افريقيا، الذى يواجه الشاطىء الفرنسى على الجانب الآخر من البحر الأبيض، وقررت فرنسا أن تحول الجزائر إلى قطعة من الأرض الفرنسية، وتلغى تماما الشخصية العربية الإسلامية لسكان هذه المنطقة. وكانت تريد أن يتحول الجزائريون «العرب» و «المسلمين» إلى عبيد أو خدم للسيد الفرنسى صاحب المزارع والكروم والمصانع فى الجزائر الفرنسية.

واستولت فرنسا فى شرق البحر الأبيض على الشام الكبير، أى سوريا ولبنان.

أما اسبانيا، فاحتلت الأراضى التى تواجهها فى الشاطىء الافريقى. وأطلقت عليها اسم مراكش الاسبانية.

واستولت ايطاليا على ليبيا. وكان النزاع فى أوروبا على الاسلاب. التى هى الأرض العربية التى تعيش فيها المجتمعات الإسلامية على اشده فقبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان قياصرة المانيا وقوادها العسكريون، يطالبون بنصيب المانيا القيصرية فى عملية النهب هذه، وخرجت من المانيا الأفكار التى تبناها «هيرتزل» لينادى باقامة إسرائيل. ولكن قبل هيرتزل، كان هناك من ينادى باقامة مستعمرة المانية فى فلسطين، وطالب ساسة المانيا بأن تكون هجرة الالمان إلى فلسطين والشام، لا إلى الغرب الأمريكى، لأن فرص الحياة، والسيطرة متاحة بالاستيلاء على أراضى العرب المسلمين، فى ذلك الموقع الاستراتيجى المسمى بالشرق الأوسط.

وقام الألمان بالتحالف مع السلطان العثمانى خليفة المسلمين، بإقامة خط سكة حديد من برلين إلى الاستانة، إلى بغداد كوسيلة عملية للنفاذ فى الأراضى العربية الإسلامية، واختراق النفوذ البريطانى والفرنسى الذى احتل مناطق شاسعة من هذه الأراضى.

وخلال كل هذه العمليات الاستعمارية كانت سياسة الغرب،

تقوم على تجريد المسلمين، وبالتالى الإسلام، من كل أسباب الحضارة ومظاهرها.

·عاملوا الإسلام، كما لو كان قوة سياسية جغرافية، محصورة فى منطقة محددة من العالم، وليس عقيدة سماوية، جاءت لهداية البشر من كل الأجناس.

رفضوا التفاهم مع المجتمعات الإسلامية على أساس المساواه، ومبادىء العدالة، أو حتى مبادىء القانون الدولى. وأصروا على أن تكون العلاقة بين سيد ومسود، ومتحضر ومتخلف وقوى وضعيف.

اطلقوا دعاوى، بأن المجتمعات الإسلامية، تتنافر تماما مع المجتمعات الأوروبية المسيحية.

لماذا ؟

· لأنه، حيث كان يعيش المسلمون مع المسيحيين فى اسبانيا، كان لابد من حرب، انتهت بخروج المسلمين من اسبانيا. وحيث كان يعيش المسلمون مع المسيحيين فى اليونان أو بلغاريا.. كان لابد من عزل المسلمين عن المسيحيين. وحتى فى العصر الحالى، لم يستطع المسلمون الاتراك، التعايش مع المسيحيين اليونانيين فى قبرص، فكان الانفصال ونفس الشيء تعرضت له لبنان!

وعلى هذا الأساس الخاطىء فى فهم حقائق التاريخ، نشطت دعاوى معاصرة، تطالب بطرد الجزائريين والمغاربة من فرنسا، وطرد الاتراك من المانيا. وتدعو إلى تقسيم لبنان بين طوائفه المختلفة.

ولو تأملنا هذه الدعاوى، لوجدنا أنها تزيف التاريخ. لأن المعارك التى نشبت كانت بين استعمار غربى، ومجتمعات عربية، قد تكون عقيدتها الغالبة هى الإسلام، ولكنها تضم ابناء من المسيحيين العرب، كانوا ومازالوا من قادة الفكر العربى القومى، وساهموا بأوفر نصيب فى بناء المجتمعات العربية الإسلامية، ودافعوا عنها بدمائهم وأموالهم.

والمستفيد الأول من الدعاوى التى تريد، تقسيم المجتمعات على أسس طائفية وعقائدية، هو إسرائيل. وهى تمثل ذروة «الفعل» الذى ارتكبته قوى الحضارة الغربية، لتضمن استمرار سيطرتها على المنطقة التى تعيش فيها. ولقد ساهم كثيرون من المستشرقين ممن يؤمنون بالصهيونية، فى صياغة العقلية الغربية الأوروبية والأمريكية، صياغة عدوانية ضد المجتمعات العربية الإسلامية، وما زالت حتى اليوم القصص والمسلسلات التليفزيونية والرسوم الكاريكاتيرية، والاستعراضات الهزلية تصور العربى المسلم، فى صورة الهمجى تاجر الرقيق المتخلف عقليا، المستسلم لشهواته وحريمه. أى أن العدوان الدعائى والإعلامى لم ينقطع. وطالما هناك من يواصل هذا العدوان. لابد أن تتوقع ردود أفعال، ولابد أن يفقد البعض اعصابه، أو يندفع فى غضب ويواجه الحقد بالحقد، والتعصب بالتعصب ومثل هذا الاندفاع، تحركه نفس الأفكار الخاطئة، التى يذيعها المستشرقون فى الغرب ويرحب بها، كل صاحب مطمع فى أن إضعاف المجتمعات العربية، واحداث فتن طائفية بين أبنائها، وإشاعة أن

العقيدة الإسلامية، لا تعرف كيف تتعايش أو تتفاهم مع أصحاب العقائد السماوية الأخرى.

وهذه أزمة حقيقية، تأخرنا فى مواجهتها، بدليل، أنه ليس لدينا «مستغربون» أى دارسين للمجتمعات الغربية، بابعادها الجغرافية والسياسية، ومن خلال فهم وتحليل تراثها الثقافى والحضارى. وذلك على نحو ما يفعل «المستشرقون» فى دراسة مجتمعاتنا.

إن فهم الذى يجرى، ودراسته، هو الضمان الذى نستطيع أن نقدمه، حتى نتخلص من أخطار التورط فى اندفاع عصبى وأعمى وغير مدروس، لممارسة مظاهر حقد ضد كل ما هو غربى وينتمى إلى حضارة الغرب.

إن مثل هذا التورط، هو فى حد ذاته استسلام لما يكيدون له فى مجتمعاتنا حتى ونحن نصرخ، وا اسلاماه. فهى ليست سوى صرخة رد فعل من نفس نوع السموم التى تدخل علينا وإن كانت مضادة فى الاتجاه. ويتوهم السذج وحدهم بأنهم يصرخون لنصرة الدين.

الأقلية والأغلبية

من الظواهر الجديرة بالملاحظة والتأمل، إن كثيرين من الذين يبثون أفكارا متطرفة باسم الدين، يتعاملون مع الآخرين الذين يخالفونهم الرأى بخشونة وعصبية، وأحيانا يحرصون على الظهور وكأنهم أقلية فى مجتمع أغلبية ضدهم. وهو أمر غريب، من جماعات تزعم بأنها تدين بالإسلام فى مجتمعات أغلبيتها من المسلمين، والشريعة الغالبة فيها هى شريعة الإسلام.

ولقد تعودنا فى الماضى، وفى مصر بالذات، على أن يكون الخلاف فى الرأى فى مسائل الدين، لا يخرج الناس من دينهم. ولكن الذى يحدث فى الحاضر، هو أن التطرف فى الرأى، تصاحبه مشاعر يأس واحباط، وفقدان الرجاء فى أى شىء قد يأتى من هؤلاء الآخرين، الذين لا يتفقون مع الرأى المتطرف ولا يؤيدونه. وغالبا ما تتحول مشاعر اليأس، إلى طاقة تدميرية، تريد القضاء على كل ما يعترضها، أى يتحول الرأى، فيما قد نتصوره، أمرا من أمور الدين، إلى موقف سياسى من نظام الحكم، يسعى إلى فرض نفسه، بوسائل لا صلة لها بالديمقراطية، واحترام الرأى والرأى الآخر، ولا تستمد شرعيتها من إيمان بها قائم على الاقتناع، بل هى آراء واجبة التطبيق والتنفيذ بالقهر والإرهاب المعنوى أحيانا والمادى أحيانا أخرى.

ولو راجعنا هذه المواقف المتطرفة، والنفسيات والعقليات التى تتبناها، لوجدنا أنها فى كثير من مظاهرها، ترجع إلى مجتمعات إسلامية كان يعيش فيها المسلمون، كأقلية، وسط أغلبية لا تتفق معهم فى الدين. وكان من أبرز هذه المجتمعات، مجتمع الهنود المسلمين، الذين كانوا أقلية، وسط أغلبية هندوكية، ولقد لجأ الاستعمار الانجليزى إلى السيطرة على شبه القارة الهندية، بسكانها بتعدادهم الضخم الذى يصل إلى مئات الملايين، باستخدام التفرقة العنصرية والطائفية والدينية، وتحت شعار «فرق تسد» وكانت هذه هى الوسيلة المضمونة، لسيطرة عشرات الآلاف من الجنود الإنجليز، على مئات الملايين من الهنود. ولقد انتهى أمر الهند إلى تقسيمها إلى دولتى الهند وباكستان، ليعيش

المسلمــون الهنود فى مجتمــعهم الإسلامى، ودولتهم الإســلامية، وخضعت باكستان فى بداية تكوينهــا، لصيحات المتطرفين باسم الإسلام، والذين كانوا يوجهون غضبهم فى الماضى نحو الإنجليز والهنود الهندوكيين ثم وجهوا طاقاتهم الغاضــبة، نحن مجتمعهم، فأقاموا المذابح للمثقفــين من المسلمين فى باكستان بدعوى أنهم خــارجــون على الإسلام، أو مــرتدون، أو كــفــار. والذى يريد أن يعــرف المزيد عن الأهوال التى ارتكبــوها فى باكســتان، علــيه أن يرجع إلى ما عرف بتقرير الــقاضى مينر، الذى رأس احدى لجان التحقــيق فى مذبحة من هذه المذابح، ليرى كــيف ينفجر الإرهاب ليقــتل ويدمر ويخرب فى اندفاع أعــمى ويزعم أن هذه هى الدعوة إلى الصلاح والفلاح، وهى لا تزيد علــى هجمة هستيرية جــامحة لا عقل لها.

وفى دراسة نشرها مركز الأبحاث لمنظمة تحرير فلسطين فى عــام ١٩٦٥ ـ أى منذ عــشــرين عــاما ـ عن ســيــاســة إســرائيل الخارجــية، وهى من تأليف ابراهيم العــابد. جاء شــرح للأساليب التى لجأت إليهــا اسرائيل فى محاربتها للعــرب وكيف أنها أخذت عن السيــاسة الاستــعمارية الانجلــيزية، أسلوب فرق تســد، وأنها استــعانت بــاثارة النعرة الدينيــة، وقامت بدور ملحــوظ، فى اثارة الهند ضد التــجمع الإسلامى فى باكــستان بمناسبــة الخلاف بين الدولتين حول كشمير.

وتابعت إسرائيل باهتمام، كيف انــفصلت «الاقلية» المسلمة فى الهند، عن «الأغلبيــة» الهندوكية، وكيف حصلت الأقلــية على قطعة أرض خــاصة بــها، وجــعلت منهــا دولة خــاصــة بها فــمــثل هذا

التصرف، يؤيد تماما من وجهة نظر إسرائيل، أحقية الأقلية اليهودية بأرض تقيم عليها دولتها بين أرض العرب المسلمين. وكما انفصلت باكستان الإسلامية عن شبه القارة الهندية، تنفصل إسرائيل اليهودية، عن شبه القارة العربية.

ومن هنا، نستطيع أن نتتبع تلك المادة السامة، التى دخلت مجتمعنا الذى لم يعرف فيه المسلمون أنهم «أقلية» فى أى وقت من الأوقات، ثم بدأت تنتشر بين بعض الجماعات تلك الأفكار المستوردة، والتى يتعامل بها المسلم كأقلية مضطهدة، أو بعقلية الأقلية المنبوذة.

والإصرار على تأكيد ظاهرة الأقلية، هو الطابع الذى يفضح هذا التيار الذى شجعته اسرائيل، وهو تيار لا يهتم فى المقام الأول بقضايا اجتماعية أو اقتصادية، لأنه لو كان يتبنى قضية لتحسين مستوى معيشة الناس، فما أكثر الذين يعانون من مشاكل اجتماعية واقتصادية، ويريدون تحسين أحوالهم المعيشية.. وليس المطلوب من أصحاب الدعوة، أن يكون لديهم شعور بأنهم الأكثرية، بل المطلوب أن يظل احساسهم قويا بأنهم الأقلية المنبوذة التى لا تثق فى الآخرين. وترى فيهم أعداء من الكفار الواجب القضاء عليهم، ولا تحسين لأحوالهم المعيشية !

فالغضب والنفور من المجتمع، والانعزال عنه، ومعاملته كعدو، كل هذه هى مداخل لتحويل هذه الفئة من «الأقلية» إلى قوة ضاربة قادرة على الإتيان بأعمال العنف والإرهاب، دون أدنى اهتمام بما قد يمس الناس فى مجموعهم من أضرار وأذى، لأنهم

يمثلون «الأغلبية» التى لا تستحق.

والإسلام الحقيقى، كما عرفناه، هو دين الفطرة، أى أن الإنسان لو ترك لفطرته، وبداهته، لكان مسلما، ومعنى هذا، أن الإسلام بالضرورة هو دين الأغلبية الساحقة للبشرية جمعاء.

وقد تعلمنا من كبار العلماء، أن الإنسان الذى يفكر ويتأمل ويتدبر، صادقا جادا، ليتعرف على وحدانية الله. ولكنه ظل حتى وفاته يفكر فى هذا الأمر، دون أن يقطع الشك باليقين، فهو يموت مسلما. لأنه يموت محتفظا بفطرته، ولأن الأصل فى البشر أنهم مسلمون. وليس كما يزعم هؤلاء الدخلاء الجدد، أن الأصل فى البشر أنهم كفار، وأن القلة هى المسلمة.

ولكن النظرة التى جلبتها الحروب مع إسرائيل هى التى أدخلت عقلية الأقلية، ونفسية الأقلية التى تتفق تماما مع الديانة اليهودية التى تقوم على تميز فئة قليلة من البشر من دون الناس أجمعين، اختصهم الله، برسالته.

وإنه لما يدعو للأسى حقا، أن تفسد العلاقات بين مسلمين ومسلمين، وعرب وعرب أو بين مصريين ومصريين، بمثل هذه الأفكار التى توالدت أو باضت وأفرخت، فى أوكار سياسات الاستعمار ومبدأ فرق تسد. ثم مع الحرب السياسية والإعلامية والنفسية، التى صاحبت ومهدت للحروب العسكرية بين العرب وإسرائيل، وأشاعت فيها إسرائيل مبدأ نصرة الأقلية وحقها فى الانفصال عن الأغلبية والحصول على أرضها ودولتها.

وهكذا انتقلت إلينا العدوى، وإذا بالدعوة إلى الأقلية

الصهيونية، تأخذ طابع الدعوة إلى أقلية تحتكر الإسلام.

وقديما قال ابن خلدون: إن المغلوب يتأثر بطباع الغالب. أى أن هذه الدعاوى التى تأخذ طابعا إسلاميا، هى فى حقيقتها، دعاوى نفوس خضعت للهزيمة والاحباط وعلينا أن نعالجها لتشفى من هذا الاحباط وتستعيد فطرتها السليمة، وتعود إلى أغلبيتها التى انعزلت عنها وهجرتها.

الهجوم الثالث وأخطاء الحكام

إن محاولة ضرب الإسلام بالمسلمين، هى المحاولة الثالثة الكبرى فى تاريخ الإسلام للهجوم عليه.

وأولى هذه المحاولات ـ كما نعرف ـ كانت مع بداية عهد الدعوة، وبعد وفاة الرسول ﷺ وكان طابع هذه المحاولة هو «الخروج» من الإسلام، والارتداد إلى الكفر، وتاريخ الخلفاء الراشدين، ابتداء من أبى بكر الصديق إلى على بن ابى طالب ـ كرم الله وجهه ـ هو فى أحد جوانبه تاريخ مواجهة تيارات الردة والانشقاق والخروج من العقيدة «الجديدة» توقعا لانتهاء أمرها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفشلت هذه المحاولة، فانتشر الإسلام، وقويت شوكة المسلمين، وامتد حكم الخلافة الإسلامية على كل مكان متحضر فى الأرض، حتى كانت المحاولة الثانية لضرب الإسلام بالهجوم عليه بمحاولة غزوه واقتحامه. فإذا كانت المحاولة الأولى، هى محاولة «خروج» من الإسلام، فالمحاولة الثانية هى محاولة «دخول» على الإسلام بغزوه، واقتحام معاقله. وأخطر هذه

المحــاولات، تلك التى قــام بها التــتار بقــيادة هولاكو. ودخــولهم بغداد، واسقاطهم لحكم الخــلافة الإسـلامية العباســية. ولقد حمل هولاكو معه دعوة تنــادى، بأن الحاكم العادل الكافر أصلح للناس من الحاكم المسلم الظالم. واضطر علمــاء بغداد إلى الإذعان لرأيه، وإقرار شرعيــته ! وقد وقعوا فى حرج شــديد، حيث طرح هولاكو القــضيــة، وهو يملك قوة الســلاح وبطش جيــشه الجــبار، وأقــام تناقــضا بين العــدل والحــاكم المسلم، مــع أن من حق المسلمــين اختــيار حاكــمهم العادل، وتقــويمه إذا أخطأ بل عــقابه إذا ظلم أو ارتكب جرما. ولكن افكارا خاطئة، تصورت أن الحاكم معصوم من الخطأ هى التــى سمــحت بأن يــجمع الــحاكــم بين سلطة الحــاكم وارتكاب المظالم دون مساءلة أو حســاب.

وعلى أية حال، شــاءت حكمة الله سبحانه وتعــالى، أن يكتشف التــتار بأنفــسهم، أنه لا بقــاء لهم، إلا بالدخول فى ديــن الإسـلام، فحيث كانوا مهاجمين غازين، تحولوا إلى مسلمين يحكمون بشرع الله.

ومن محــاولات اقتحــام الإسـلام و «الدخول» علــيه عنوة، تلك الحملات الصليبية التى هاجمت المجتمعات الإسلامية لعدة قرون، وكانت نــهايتهــا التار
العربيــة الإسـلامــية بع
العشرين، ثم انســحابهم بعد
هذه المنطقة، مدعمة بكل قو

ونحن الآن بصدد محاولة ثالثة تتخذ أسلوبا جديدا فى الهجوم

على الإسلام، وهى محاولة ضربه، وتمزيق المجتمعات الإسلامية، لا بالخروج عليهـا، ولا بالدخول فيها. ولكـن بضربها من الداخل، وعن طريق اثارة المسلم ضد المـسلم. فاليقظة الدينية الصحـيحة والصحـية، التى يستعـيد بها الناس فى المجـتمعات القـائمة على أصول إسلامية وحضارة وتراث إسـلامى، هويتهم، وشخصيتهم الحقيـقية، تنقلب فجأة من يقظة إلى فـتنة، ومن اتجاه إلى التنوير إلى اتجاه إلى التعـتيم، ومن تفتح للاجتهاد والاعتـماد على العقل كنعـمة كبـرى أنعم بها الله على الإنـسان، إلى مزيد مـن الانغلاق، والاعـتـمـاد على «النقل» لا «العـقل» أى اعـتـمـاد على نصـوص محفـوظة بغير فهم، وترديد كلمات بغـير ادراك صحيح لمعـانيها ومراميـها. ينقلها أو يتناقلها من «أسلمـوا» أنفسهم لمشيـئة أفراد يفكرون لهم، ويستـخدمونهم جنودا لهم يزعـمون أنهم جنود الله، وهم فى حقيقة الأمر جنود حاكمين بأمرهم.

والسؤال الذى يفرض نفسـه، هو كيف نواجه هذه الفتنة، وهى أخطر محاولة ضد الإسلام. لأنها تضربه من داخله، وفى صميمه فهى ليست محاولة خروج أو دخول عليه، إنها محاولة انفجار فى الداخل. يتولى فيـها المسلمون القضاء على بعضـهم بعضا. تحت تأثيـر أحـدث الوسائل فـى الحرب النفـسـيـة، وغسل الـعقـول، وتوجيهها إلى حيث يشاء من يتآمر عليها.

والاجابة عن السؤال تشمل عدة نقاط:

أولها فى رأيى: ضـرورة الاعتراف بأخطاء سـبق ارتكابها من جانب السلطات، ضد يقظة دينيـة صحيحة وسليمـة، كان التعامل

مع ما يشوبها من انحرافات، بأساليب بوليسية جائرة، بينما كان الواجب التعامل معها بالحوار والاحترام الكامل للمشاعر، والثقة فى أن من يدعو إلى الدين، يمثل غالبية ساحقة، نواياها طيبة، وأهدافها شريفة، ومعاناتها حقيقية، وسعيها صادق لمواجهة أزمات وتحديات نعجز عن مواجهتها، ولا معنى لتعليق العجز على مشجب أصحاب النوايا الطيبة.

والأمر الثانى لمواجهة أى تطرف أو انحراف باسم الدين: هو العمل على تجنب أى شقاق وخلاف بين أهل السنة وأهل الشيعة، خاصة الحرب الإيرانية العراقية، فتحت أبوابا للشقاق تؤدى إلى تهيئة أسباب ضرب المجتمعات الإسلامية من الداخل.

إن القتال بين إيران والعراق، لن يجد تفسيره الحقيقى فى الدين، والخلافات المذهبية الدينية. إن تفسيره الحقيقى نجده فى السياسة ومصالحها الدنيوية، وفى أطماع السلطة والهيمنة السياسية.

والذى يتجاهل هذه الحقائق، عليه أن يتجاهل أيضا أن السلاح الذى يستخدمه المتحاربون، مصنوع فى مجتمعات غير إسلامية لا صلة لها بالسنة أو الشيعة، واستخدام السلاح، ووسائل الحصول عليه، وتوفير امكانيات صيانته واستيراد قطع غياره، أشد تأثيرا فى توجيه الحرب من أى حديث مفتعل عن خلافات دينية أو مذهبية، ولا يصح أن نساعد على تعميقها بل الواجب المسارعة برأب أى صدع، وسد أى فجوة، وهناك بين علماء السنة وعلماء الشيعة، كثيرون تجمعهم نبالة القصد، وفضيلة التقى

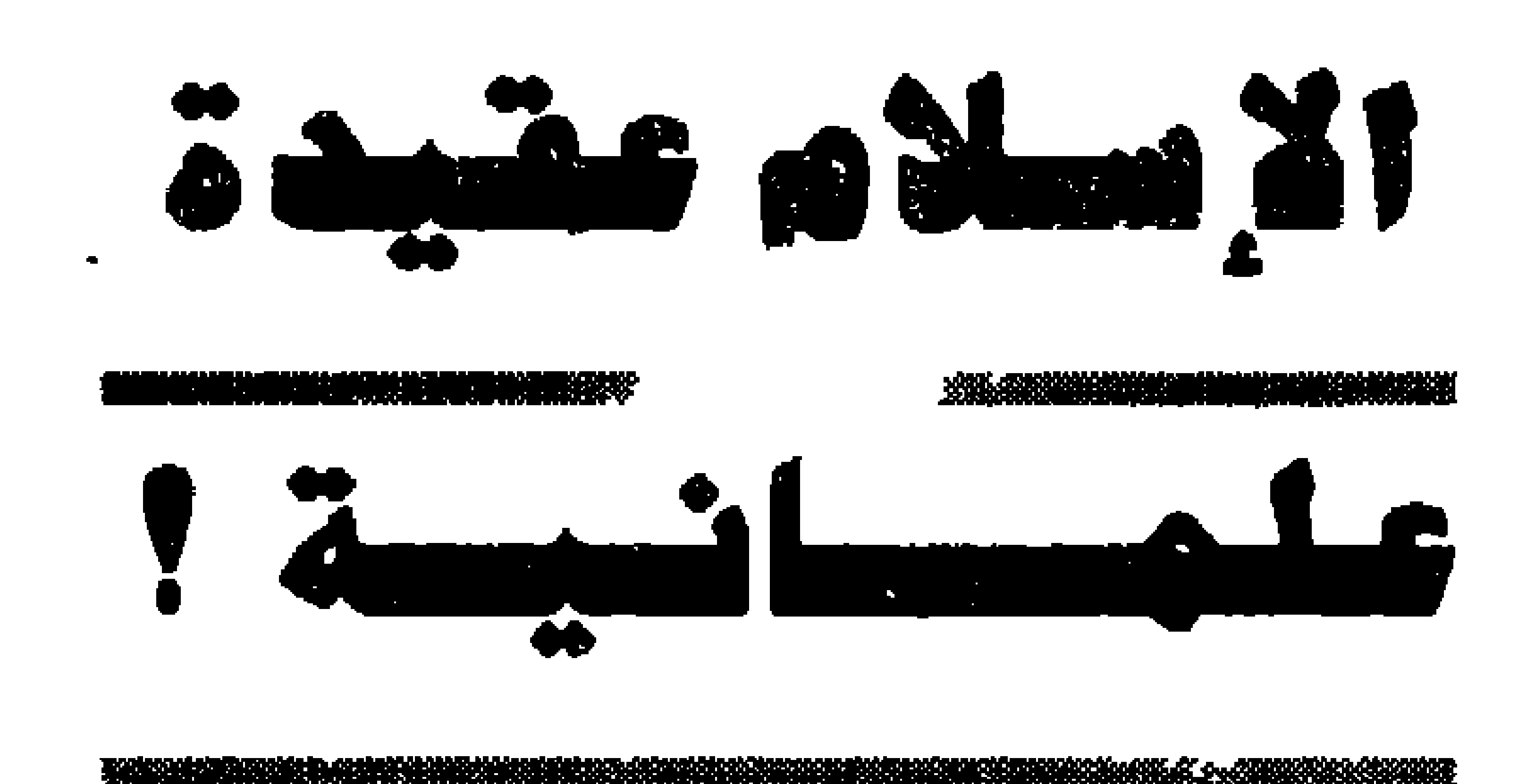
والورع وخشية الله سبحانه وتعالى.

والأمر الثالث الذى لابد من الاحاطة به: هو مسئولية القيادات السياسية، فى اللعب بالنار، والمناورة باسم الدين، واستخدام الحماس الدينى، لدفع الشباب وقودا فى عملات اتمارية إرهابية، يقوم بتحويلها حكام وأصحاب أموال، حتى أصبح أمامنا مشهد يتكرر، لشاب فقير متحمس لدينه، يجد من ينفق عليه ببذخ، ويقدم له السيارات التى يبلغ ثمنها عشرات الآلاف من الجنيهات ليفجرها، وينفق عليه ليوزع نشرات مطبوعة تتكلف طباعتها ملايين الليرات أو الدنانير !

وإذا لم تعدل القيادات السياسية التى تمارس هذه اللعبة النارية المدمرة، عن اسلوبها هذا، فلابد أن تزداد النار اشتعالا حتى تلتهم الذى يلعب بها. ولكن أية مكاسب يجنيها المجتمع الإسلامى من هذا العبث بالنار!

وأية خسارة تلحق بالمجتمع الإسلامى إذا نسى حكامه ذلك السؤال، الذى طرحه هولاكو يوما ما . عن أيهما أصلح، حاكم مسلم ظالم، أم حاكم عادل كافر، ونضيف إلى السؤال سؤالا آخر. أيهما أصلح، حاكم يستغل الإسلام فى المناورة السياسية، أم حاكم يؤمن بأن الإسلام، هو العدل وإعلاء قيمة العقل واحترام حقوق الإنسان ؟!

الفصل الثالث



لم تعرف مصر الصراعات الدينية، لا بين أصحاب العقيدة الواحدة ولابين اصحاب عقائد مختلفة. وهذه الحقيقة، واحدة من أهم ملامح العبقرية المصرية. وإذا نظرنا حولنا ـ نظرة جغرافية أو تاريخية ـ سوف نرى، مجتمعات أخرى كثيرة، تعرضت لأبشع ألوان الصراع الدينى والمذهبى، واقتتل فيها اصحاب الدين الواحد، وأقاموا المذابح وسفكوا الدماء فيما بينهم.

والهجرة الأوروبية إلى أمريكا، قامت على عناصر كثيرة من الهاربين من الاضطهاد والمذابح الدينية التى ارتكبتها طوائف مسيحية ضد بعضها البعض. مذابح البروتستانت، والهوجنوت والصراع الدموى الذى مازال قائما حتى اليوم فى ايرلنده بين الكاثوليك والبروتستانت.

وكذلك عرفت المجتمعات الإسلامية هذه المذابح، سواء بين

شيعة وسنة، أو غيرهما من الطوائف والفرق الدينية، حتى شاع بين البعض أن هناك حديثا نبويا شريفا، بأن أمة الإسلام سوف تتفرق إلى اثنتين وسبعين فرقة، وفرقة واحدة من بينهم، هى التى سوف يكتب لها النجاة، أما الباقون فمصيرهم جهنم وبئس المصير !

والذى انقذ مصر من هذه الصراعات الدينية، ليس الصدفة، ولكنه جهد عبقرى قام به مصريون متحضرون على مستوى رفيع من الثقافة، سألوا منذ آلاف السنين الاسئلة الهامة، التى يسعى إلى معرفة الاجابة عنها، كل إنسان يحترم نفسه ويفكر فى لحظات حياته، كلحظات مثمرة منتجة ولا يفكر فى حياته كموظف فى مكتب فى القاهرة خائف ولا يكسب رضاء رؤسائه بغير النفاق.

كان السؤال المصرى هو، من الذى خلقنا؟ وكانت الاجابة، ومن قبل أن تهبط الرسالات، أنه لابد أن يكون للكون خالق واحد.

وهى ليست اجابة بسيطة، أو سهلة، فى عالم تسيطر عليه قوى كثيرة، وتتصارع فيه مصالح متعددة ومتناقضة، مما يشجع كل قوة على أن تختار لها رمزا يتفق مع مصالحها وتجعل منه إلها تحاول أن تفرضه بالقوة على الآلهة التى يعبدها الآخرون.

الإجابة المصرية جاءت ومن قبل انتشار الوحى، وتعاليم السماء، لتقول إن خالق الكون هو إله واحد، مع كل ما لابد وأن يترتب على هذه الاجابة من نتائج، منها أن يرتفع البشر، مع استمرار الإيمان بالتوحيد، إلى مدارك النظرة الشاملة للكون، التى

تربط بين جميع الأجناس، وكل الحضارات، وتوجه كل الثقافات فى اباة مصلحة عليا لجميع البشر، يحكمهم قانون واحد اساسه العدالة، وليس اساسه التفرقة العنصرية، وتمييز أجناس على أجناس وطبقات على طبقات بناء على مصالح مؤقتة، ولفئة دون فئة أخرى من البشر.

لقد اعتمدنا على العقل والتأمل والتفكير والنظر فى أحوال الكون فوصلنا إلى التوحيد بإجابة مصرية، قبل أن نصل إليه بوحى ورسالة من السماء ثم هبطت الرسالة توضح الاجابة السابقة، وتصححها وتدعمها وتوجهها الوجهة السليمة لكل البشر.

ومن هنا ارتبطت العقيدة الدينية، بتراث المصرى الحضارى والثقافى على نحو فريد، ليس له مثيل فى أى مجتمع آخر فالمصرى يجد فى أعماق شخصيته، تلك الإجابة الدينية، على امتداد تاريخ الحضارة فى وادى النيل. والتدين عنصر اساسى فى الشخصية المصرية، تلمسه واضحا، حتى بين الذين لا يمارسون العبادات لسبب أو آخر ولا يترددون على المساجد أو الكنائس. نجدهم جميعا فى قرارة أنفسهم يتعاملون بمفاتيح للنفس كلها قائمة على نظرة التوحيد وعقيدة التوحيد.

فكل شيء عند المصرى «بمشيئة الله» و «باذنه» ورؤيته للكون، وتوقعاته للأحداث سواء على المستوى العام أو الخاص، وتصرفاته ومعاملاته، تحكمها عقلية مؤمنة أى مقتنعة اقتناعا عقليا بوجود الله ووحدانيته.

والتوحيد ويوم الحساب والآخرة، من معالم الثقافة المصرية التى ربطت بين المسيحيين والمسلمين فى مصر، على نحو يختلف عنه فى أى مكان آخر من العالم والارتباط بينهم هو ارتباط أهل، لأن المصريين عندما دخلوا الإسلام بعد دخول عمرو ابن العاص مصر، عاشوا ـ كما يقرر المؤرخون ـ لأكثر من قرن من الزمان، وبعد أن تحولت غالبيتهم إلى الإسلام، لا يشعرون بأنهم أحدثوا تغييرا خطيرا ومفاجئا فى حياتهم، فالتوحيد لم يتغير، وتقديس السيد المسيح والسيدة العذراء قائم، والاضافة التى قدمها الإسلام فيها عدل دنيوى مطلوب بعد أن عاش المصريون المسيحيون مرتبطين بمثل عليا مقدسة، قائمة على أنه لا خير على هذه الأرض، وأن الخير كله والسلام الحقيقى، والنعيم الأبدى فى ملكوت السموات.

إن الشعور الذى ساد بين المصريين الذين اسلموا فى القرن الأول من الفتح الإسلامى، أنهم يستكملون دينهم بتعاليم جديدة متطورة تهتم بأمور الدنيا إلى جانب أمور الدين، أى أن الإسلام كان بمثابة تطور علمانى فى أحد جوانبه لعقيدة المصرى.

وإنه لمن الغريب حقا، أن تدور مناقشات سياسية، وتثور دعوات ضد العلمانية، دون أن يدرك أصحاب هذه الدعاوى تاريخ العلمانية، أو يحددوا المعنى، ولو كما جاء فى القواميس ودوائر المعارف.

والعلمانية ليست ضد الدين. والعلمانى ليس ضد الدين، بل أن العلمانية تعبير نشأ فى المسيحية، للتفرقة بين رجل الدين الراهب

الذى يلتزم بنظم كنيسة معينة، وأى رجل آخر، حتى لو كان رجل دين، ولكنه لا يعيش حياة رهبنة. فالراهب الذى لا يتزوج ليس علمانيا، أما القس البروتستانتى المتزوج فهو علمانى.

وعندما استخدم تعبير العلمانية فى السياسة، كان المقصود به عدم اخضاع إدارات الدولة لشئون الكنيسة، وكان نقل ملكية أموال وعقارات من الكنيسة إلى مواطنين عاديين، يعتبر تصرفا علمانيا. والذى استخدم تعبير العلمانية فى انجلترا هو «هوليوك» فى دعوته إلى تحسين سلوكيات الافراد فى المجتمع دون معارضة لتعاليم الدين، أو الوقوف عند هذه التعاليم كما تفرضها الكنيسة. وقد اسس «هوليوك» جمعية علمانية فى لندن تطالب بالتحرر من سيطرة الكنيسة وإلغاء مجلس اللوردات.

ولذلك أقول بصراحة إن الذين يورطون الرأى العام فى بلادنا فى مناقشة العلمانية باعتبار أنها أمر ضد الدين، ويطلقون أحكاما حاسمة ومتسرعة قائمة ـ غير أساس، إنما يفتعلون معركة مستوردة من مجتمعات أجنبية، هى التى قامت فيها تلك الصراعات الدينية المخيفة بكل ابعادها السياسية والاجتماعية، والتى لا صلة لها بواقعنا وتراثنا.

ومن ناحية أخرى، إذا كان الدفاع عن العلمانية، يهدف إلى عدم الاعتراف بالدين، فليس هذا خطأ فادحا فى حق الدين فقط، بل هو أيضا خطأ فادح فى حق الشخصية المصرية، وتراثها الحضارى والثقافى.

أما إذا كانت العلمانية، هى الاعتراف بأن الدولة تحتاج إلى

جهـود مكثفـة تعتـمد على نـشر العلم، ورفع مـستـوى الثقـافة، والتـعرف على الثـقافات الـمعاصـرة، ودراستـها، فـعندئذ تكون العلمانية ضرورية.

والإسلام هو الدعوة الحقة للعلمانية، باعتبار أنه يقدم للإنسان الرؤية الروحية والمادية للحياة. والنظرة الدينية الدنيوية للوجود، وهى بمعنى آخر، النظرة الروحية العلمانية، أو الدينية العلمانية.

ولقد بدت تـباشيـر هذه النظرة المزدوجـة، فى تبصـير بعض القديسين المسـيحيين بها قبل ظهـور الإسلام، ولم تكن واضحة تمـاما، ولكنهـا كانت تدل علـى أن البشـرية فى حاجـة إلى نظرة تستكمل وتضـيف إلى عقـيدتها السـماوية الروحيـة، القدرة على مواجهة تحديات الدنيا المادية، مشاكلها الدنيوية.

وها هو خطاب أرسله الـقديس جـيـروم ٣٤٥ م ـ ٤٢٠ م إلى سيـدة رومانية اسـمهـا «يوستوكـيوم» كانت تقـيم فى بيت لحم بفلسطين، حـيث أقـام القديس حـتى نهـاية حيـاته، نجـد فى هذا الخطاب، هذه الـرؤية التى تمـزج بيـن الدنيـا والدين، والحـيـاة والموت، ولقد جاء فى الخطاب ما نصه.

«إن العـالم غـارق فى الانقاض ومـن المخـجل أن نقـول : إن خطايانا تحيا وتزدهر.. إن روما عاصمـة الإمبراطورية، قد ابتلعها حريـق هائل وأصبح الرومـان منفيـين فى كل مكان فى الأرض.. إننا نعـيش كمـا لو كنا سنمـوت غدا، ومع ذلـك فنحن نبنى كمـا لو كنا نعيش أبدا فى هذه الدنيا» !!

ولقد وصف القديس جيروم، حال الـدنيا، كمتفرج يرى الواقع

بصدقه ومرارته. وهو لا يطالب بشيء. ويكتفى بوصف ما يراه، فنحن نعيش كأننا نموت غدا. ولقد جاء الإسلام، فحول هذا المعنى واعاد صياغته، ليخرج من حدود الوصف، ويصبح حكمة أو توجيها - يقال إنه جاء على لسان على بن أبى طالب - كرم الله وجهه : «اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا».

وجمع هذا الأمر بين الدنيا والآخرة، فأعطى للنظرة إلى الدنيا أبديتها، أو كأنها مستمرة إلى أبد الآبدين، لتكون نظرة علمانية.

وفى الوقت نفسه لم يتجاهل الأمر، النظرة إلى الآخرة، التى لا تقوم إلا على إيمان واقتناع بالدين.

والذين يريدون أن يحدث اشتباك عدائى، بين الدنيا والآخرة، ويرفضون العلمانية، باعتبارها خروجا على الدين، يعملون بلا وعى - ولا نتهمهم بغير ذلك - على حرمان اضافة حقيقية ولها أهميتها وخطورتها فى العقيدة الدينية جاء بها الإسلام، وهى العلمانية. لأن الإسلام يطلب منا أن نستعين بعقولنا فى كل لحظة، والإيمان يزداد وينقص، بقدر ما يحصل عليه العقل من مزيد من المعارف والدراسات فى الكون من حوله فيزداد مع كل معرفة جديدة إيماننا بالله، أى أن العلمانية باهتمامها بالحياة الدنيا وكأننا نعيش أبدا، هى أيضا طريق موصل إلى الإيمان بالله.

والخلط الذى يؤدى إلى افتعال صراع بين الدين والدنيا. يأخذ اشكالا متعددة، وأسوأ ألوانه ذلك الذى يأتى الينا وافدا من الخارج.

ومن أهم مصدرى هذا الخلط، إسرائيل، التى تشجع كل صراع باسم الدين، ولها منطقها ومبرراتها، فهى تسعى إلى أن تقوم دويلات الأقليات حولها، ويتفتت العالم العربى والإسلامى، وتنزع منه كل أسباب القوة والمنعة التى قد تشكل خطرا على أمن اسرائيل من وجهة نظرها.

ويأتى الخلط أيضا منذ تورط بلادنا العربية فى معارك الحرب الباردة، بين القوتين الأعظم، فحاول البعض أن يربط الدين بتحالفات مع معسكر الغرب الرأسمالى الذى تقوده أمريكا.. وهاجم الكفر والالحاد فى المعسكر الشيوعى بزعامة الاتحاد السوفيتى واقحام الدين أو استغلاله فى مثل هذه المعارك، لعبة خطرة، فتحت الأبواب على مصراعيها لمناورات ـ باسم الدين ـ أفسدت ومازالت تفسد رؤيتنا المصرية، التى هى من نوع السهل الممتنع، للتوحيد وللعقائد السماوية، فى أرض مصر. حيث نعيش فى أرض التسامح التى تعتمد على الفهم والعقل السليم، والاجابات الحضارية التى صنعت تراث مصر الثقافى واصالتها وعبقريتها.

لقد جلب صراع الحرب الباردة عبر أبواب من الانفتاح بلا ضوابط بذور تيارات، هى التى اشعلت الحرب بين إيران والعراق، وهى التى أحرقت بيروت بعد حرب أهلية دامت جيلا بأكمله، وهى التى تهدد جنوب السودان، وتطلق بين حين وآخر أعمال العنف فى المغرب العربى، أو فى الخليج.

ومسئولية مصر، أن تكون نفسها، وأن تمارس ذاتها، وأن

تعتمد على اصالتها وعبقريتها، وأن ترفع دائما شعاراتها الحقيقية القائمة على الاعـتماد على العقل واجاباته، والقائمـة على التسامح والنفور من الـعنف، والتى تعتمـد على تعداد مـصر الكبـير، وهو ليس تعدادا سكانيا، بل هو تعداد عـقول قادرة على الفهم، وتعداد أيد لها أصابع ذكية ماهرة، تستطيع أن تعمل وأن تنتج.

أما الاستسلام للتيارات الأجنبيـة، والانفتاح عليها، فهو ضياع لثقافتنا وتراثنا الحضارى. يتـاجر به هواة وضحايا جهل وأطماع وقلة خبرة وقلة حيلة وقلة إيمان.

ومسئولية تصحيح هذه الأخطاء، والتصدى لاخطارها، تقع فى المـقام الأول، على كل الاحـزاب. وهى مسـئوليـة القادة وزعـماء الأحـزاب، قبل أن تكون مـسـئوليـة الأعـضاء، وهى مـسـئوليـة المرشحين، قبل أن تكون مسئولية الناخبين.

ولنوقف عمليات المتاجرة بالدين، والتهويش والإدعاء والتظاهر باسمـه وافتعـال المعارك ضد الـعلمانية مع تصـويرها تصويرا غامضا، كسبا لمشاعر الناس وانفعالاتهم.

وأعتقـد أن المصريين قد تنبـهوا إلى هذه المتاجـرة بالمعارك المستوردة لسبب أو آخر، ولم تعد الصيحات المتشنجة، تثيرهم ، كما كان يحدث ذلك فى الماضى .

الفصل الرابع

صراع قوميات..

لا أديــــــان

كان اسمه «سويتشا» يوغوسلافى يعمل فى مشروع للأمم المتحدة لتأمين المطارات الدولية ضد عمليات الإرهاب. وكان يأتى إلى القاهرة بين وقت وآخر، وتقابلنا فى نادى الجزيرة أمام رقعة شطرنج. ذات يوم دار بيننا حديث عن السياسة وعدم الانحياز والمذاهب والأيديولوجيات ـ فاجأنى بقوله :

المسلمون عندنا يمثلون قومية إنهم ليسوا كالمسلمين عندكم!

قلت له فى غير فهم :

كيف ؟! الإسلام عقيدة، ديانة لجميع البشر فى كل مكان وكل جنس أو قومية.

قال فى هدوء :

- إنهم عندنا قومية من بين القوميات، فأنت لست منهم.

أنت مصرى قوميتك مصرية. وهم فى يوغوسلافيا قوميتهم مسلمون !

نبهنى هذا الحديث إلى الخلط الذى يقع فيه المثقفون على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم فى الغرب.

فى أوروبا وأمريكا، يخلطون بين الإسلام والجغرافية، يعقدون مقارنة بين مجتمع إسلامى ومجتمع أوروبى، يخلطون بين الإسلام والمذاهب السياسية، فيتحدثون عن الفروق بين الشيوعية والإسلام. أو الرأسمالية والإسلام. يخلطون بين الإسلام والأجناس، حتى أصبحت كلمة تركى ترادف كلمة مسلم فى كل أدب القصص والروايات التى كتبها الأوروبيون فى القرن التاسع عشر. يخلطون بين الإسلام ولون البشرة، فالمسلم زنجى فى نظر البعض، والأدهى من ذلك، يخلطون بين الإسلام وأنواع السلوك التى تتسم بالعنف والقسوة !

إنها رؤية جاهلة للإسلام، وهى أحيانا رؤية متعمدة لمحاصرة الإسلام فى أماكن محددة وبيئات خاصة وأوساط بذاتها لا يخرج عنها المستشرق برنارد لويس يتحدث عن عقيدة الإسلام والمسلمين فيتحدث فى الوقت نفسه تحت عنوان «أراضى وشعوب الإسلام» وعلى الفور يسود عند القارىء انطباع بأن الإسلام له «أراضى» محددة، وتدخل الإسلام شعوب محددة! ليس هناك من يتعامل مع الإسلام على أنه دين لجميع البشر قام على التسامح والجدل بالتى هى أحسن بين جميع البشر، الإسلام فى رأيهم شرقى لا صلة له بالغرب!

صراع قوميات وصراع دين !

فى إطار هذا المفهوم عن الإسلام، نسمع منذ شهور الأحداث الدامية التى اجتاحت يوغوسلافيا، سمعنا أول الأمر عن الحرب في كرواتيا ودامت عدة شهور. وكانت المعارك بين الصرب والكروات. ولم تتحدث وكالات الأنباء عن الصراع الدامى بين «الصرب» وهم مسيحيون أرثوذكس ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وبين «الكروات» وهم مسيحيون كاثوليك ينتمون إلى الفاتيكان والبابا فى روما. فلما امتد الصراع إلى «البوسنة والهرسك» حيث يوجد مواطنون مسلمون، إذا «بالمسلمين» يعتلون مسرح الأحداث الدامية !! يتعاملون معهم «هناك» على أنه صراع بين قوميات. ونحن نتعامل معهم «هنا» بعقولنا ومشاعرنا على أنه صراع مع الدين. وكان من المثير حقا. أن نسمع عن معارك تخوضها الميليشيات الصربية ضد «المسلمين» وضد «الكروات» : لماذا لا يقولون ضد المسلمين والكاثوليك. إنهم مصممون على محاصرة الدين الإسلامى داخل قومية أو أرض جغرافية أو جنس معين له لون بشرة خاصة به !

لا يعنى هذا التخفيف من وقع الجرائم البشعة. إن ما حدث لابد أن يكون له حساب ورد فعل مدروس، ولكن الجرائم ليست مقصورة على المسلمين، والتعقيدات التى تصاحبها تحتاج إلى مراجعة وتأمل لطبيعة الأحداث وتاريخها وسياقها.

الطيور السوداء

لقد انهارت يوغوسلافيا، كانت تمثل اتحادا لست جمهوريات :

جمهورية صربيا، جمهورية الجبل الأسود «مونتنجرو» جمهورية «كرواتيا»، جمهورية «سلوفينيا»، جمهورية «البوسنة والهرسك»، جمهورية «مقدونيا». هذه الجمهوريات كانت محل صراع دموى فيما بينها يعود إلى القرن التاسع الميلادى وربما قبله. وكان صراعا بين مسيحيين ومسيحيين واشترك فيه أصحاب مذهب لا يؤمن بالتوحيد حاربوا المسيحيين، وكان اسمهم «البوجوميل» و «بوجو» فى اللغة الصربية معناها القوة العظمى. وكانت عندهم قوة ثنائية. هى قوة الخير والشر. وكانت طبيعة البلاد الجبلية والغابات من العوامل التى جعلت طباع البشر خشنة وفظة.

جاء الصرب إلى هذه المنطقة قادمين من الشرق من «أوكرانيا» من مقاطعة «جاليسيا» وكانت خاضعة لبولندة فى القرن الرابع عشر وللنمسا فى القرن الثامن عشر. هاجر الصرب إلى جزيرة البلقان خلال القرنين السادس والسابع. واعتنقوا المسيحية فى القرن التاسع. وكانوا تابعين للإمبراطورية البيزنطية، حتى أعلنوا استقلالهم تحت حكم ملك اسمه «دوشان» وكان ذلك فى القرن الرابع عشر. ولكن الاستقلال لم يدم، وسرعان ما انهارت أحلام «دوشان» فقد حان الوقت للعثمانيين لأن يجتاحوا المنطقة. ودارت معركة فاصلة فى «قوصوة» عام ١٣٨٩ وترجمة «قوصوة» أو «كوسوفوبولى» هى «حقل الطيور السوداء». ولهذه المناسبة نسمع اليوم فى برامج الأخبار والتليفزيون اسم «كوسوفو» ولا أحد يدرك أنه يستمع إلى اسم تاريخى يرمز إلى معركة حاسمة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. وإن كانت هذه المعركة بالذات تركت ذكرى لم تمحها القرون والأجيال حتى

أصبح يوم المعركة الموافق ليوم ٢٨ يونيو من الأيام التى يحتفل بها الإرهابيون فى الصرب.

إن تاريخ العثمانيين له أيام كثيرة منذ حصل «عثمان بن أرطوغرول» من السلطان السلجوقى علاء الدين على الإذن بأن يتولى السلطة فى الأراضى التى يغزوها من دولة الروم «بيزنطة» ومات عثمان عام ١٣٢٥، وها هو ابنه «أورخان» يواصل غزوات أبيه فى الاستيلاء على أملاك بيزنطة. فيجتاح «الصرب» التى ما كادت تحصل على استقلالها ! ولكن المقاومة الصربية لم تستسلم فظلت «بلجراد» عاصمتهم فى حماية المجر حتى استولى عليها العثمانيون فى عام ١٥٢١ وتحولت الصرب إلى ولاية تركيا.

مقاومة وحروب

عندما بدأت علامات الضعف والهزال تنتاب الامبراطورية العثمانية أصبحت «رجل أوروبا المريض» فى القرن الثامن عشر. وتكاثر المطالبون باقتسام التركة. وهكذا انبعثت المقاومة الصربية من جديد بقيادة رجل اسمه «ميلش أوبرنفتش» عام ١٨١٧ وقد ساعدته روسيا فاضطر السلطان إلى عقد معاهدة يعترف فيها بصربيا كإمارة خاصة ولكنه ظل محتفظا بالسيطرة الشكلية.

فلما جاء عام ١٨٦٧ انسحبت القوات التركية من صربيا.

وفى الوقت نفسه قامت ثورة فى الولاية التركية المجاورة «البوسنة والهرسك» فساعدها أمير الصرب «ميلان» وتطور الأمر

فـأعلن الحـرب على تركـيـا عام ١٨٧٨، وانـعقـد مـؤتمـر برلين واعـترف باسـتقـلال الصـرب، وفى عام ١٨٨٢ وهو العـام الذى احتل فـيه الانجليز مصـر الولاية العثمانيـة. كان الأمير «مـيلان» ينصب نفسـه ملكا على صربيا المـستقلة، وتتفـتح شهيتـه للغزو فأعلن الحرب على بلغـاريا عام ١٨٨٥. وتحولت الصرب إلى دولة شرسة تحـارب لتتوسع فى البلقان تريد الاستـيلاء على البوسنة والهرسك وتريد استقطاع أجزاء من مقدونيا من بلغاريا. وخاضت حرب البلقان عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣ لتصبح الدولة السلافية الأولى. وزادت اطماعهـا فى الاستيلاء على البـوسنة والهرسك وتقع بين كرواتيـا والجبل الأسود يحدها شـمالا نهر «السافـا» وعاصمتـها سـيـراييـفو وعندمـا دخلهـا الأتراك كـانت الصـراعـات الدينيـة المـسـيـحـيـة على أشـدها بين الكاثولـيك والأرثوذكس. وكـان البوجـوميليـون أصحاب عـقيـدة الخير والشـر يحاربون جـميع المسيحيين فلما دخل الأتراك انقـضوا على هؤلاء «البوجوميليين» باعـتبـارهم لا يدينون بديانة التـوحيـد فأبادوهم تقـريبا. وكـان الصراع الدينى قـد أنهك الفلاحـين فاستـراح كثيـرون إلى دخول دين الإسلام وساعـدهم على ذلك أن الطبقة الارستـقراطية بينهم اختارت الإسلام حفاظا على مصالحها، ولترتبط بقوة الباب العالى الذى يمثل القـوة العظمى فى العالم. وكانت «البـوسنة والهرسك» فى خوف مـستمر مـن «صربيا» وقد اسـتولت عليهم بمـجرد أن أعلن ملكهم «دوشـان» اسـتـقلاله عن بـيزنطة، وقـبل أن يغـزوه العـثمانـيون، ثم يخلصـون أهل البوسنة والهـرسك من الطغـيان الصربى.

بوتقة للأديان والصراع

والمسلمون لهم تجمع كبير فى «سـيراييفو» ونسبة المسلمين إلى بقيـة اليوغـوسلافـيين فى الجمـهوريات الست يبـلغ حوالى ١٣ فى المائة ويوجد بسيراييفو مقر إحدى هيئتين إسلاميتين فى يوغسلافيا المعروفة باسم «علما مجلس» والمقر الإسلامى الثانى بمدينة «أسكوبيا» عـاصمة مقدونيـا، ومعظم أراضـى البوسنة فى جبال الألب الدينارية، وهى مثل كرواتيا ومـونتنجرو أغلبها جبال وغابات. والكرواتيون كاثوليك. أما سكان منتنجرو الجبليون فهم من المتعصبـين للأرثوذكسية ولقد استطاعوا مقاومـة العثمانيين خـمسـة قرون كـاملة واعتـمدوا على وعـورة الجبـال وصـعـوبة المواصـلات وكثـافة الغابات. وكـان يحكمهم أسـاقفـة يتوارثون الحكم ولمـا كان الأسـقف لا يتـزوج ولا ينجب ورثة. فكان الذى يرث الحكم ابن أخ الأسـقف. وكانت منتنجرو المـلجأ الذى تأوى إليه ارستقـراطية الصرب إذا ما طاردهم الأتراك. وذلك على عكس ارستقراطية البوسنة والهرسك الذين فضلوا دخول الإسلام.

أما الكروات فـقد اعـتنقوا مثل الصـرب المسيـحيـة فى القرن التاسع واختـاروا الكاثوليكية، واستولى عليـهم الملك «لادسلاس الأول» ملك المـجـر عـام ١٠٩١. وفـتح الأتراك بلادهم ١٥٣٦م. وكـان الأتراك قد دخلـوا النمسـا منذ عـام ١٥٢٩م، ووصلوا إلى أبواب فيينا. وكان البابا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد يصدر البيـانات لتكذيب تعاليم «مارتن لوثر» البـروتستانتيـة التى احتج فيـها على الكنيسـة الكاثوليكية. وفى الوقت نفـسه يحشـد القوى ضد هجوم الأتراك المسلمين.

لقد تحولت جمهوريات البلقـان إلى بوتقة اختلطت فيها الأديان والأجناس فى أرض شديدة الوعورة، الحياة فيها جبلية قاسية.

هذا الخليط ضم بلغـارا ويونانيين وغجـرا ويهودا وأرناؤوطا، والمسـيحيون اخـتلفوا بين ارثوذكس وكاثوليك ثم أضـيف إليهم البروتستـانت بعد ظهور تعاليم مارتن لوثر الذى بدأ حـملته ضد بابا روما منذ عام ١٥١٧. هذا بالإضافة إلى «البوجوميليين» وزاد عليهم أخيرا الأتراك المسلمون. والصراعات على كثرتها تؤكد أنها كانت حـول أطماع سـياسـية تتـخذ من الدين ـ أى دين ـ مـبررا لحشد الناس تحت لواء هذا الأميـر أو ذاك. لتحقيق هذا المطمع أو ذاك. وكـان أبرز الصراعـات فى مقـدونيـا بين اليونان وبلغـاريا وصربيـا وهى مازالت حـتى يومنا هذا مقسـمة بينهم. وتعـترض اليونان بشـدة على إعلان جـمهورية مـقدونيا المسـتـقلة، وكذلك بلغاريا.

اليــد الســوداء

نعود إلى الصرب التى كانت تطمع فى حرب البلقان أن تسيطر على البلقان بأكمله، وتطمع فى الاستـيلاء على البوسنة والهرسك التى كانت تخضـع للإدارة النمساوية وإن احتفظت تركيا بسلطتها الشكلية عليها، على نحو ما كـانت تحتفظ بالسلطة على مصر رغم احتلال الإنجليز.

منذ بداية القرن العـشرين اجتمع ضبـاط فى الجيش الصربى وقرروا إنشاء جمـاعة «اليد السوداء» وهى جماعـة إرهابية تحقق الأهداف الوطنية الصـربية باستخـدام جميع الوسائل المـشروعة

وغير المشروعة. وكان أول أعمالها الكبرى اغتيال الملك الكسندر والملكة دراجا في بلجراد عام ١٩٠٣ بأن مزقوا جسديهما إربا. كان لهذه العصابة تنظيم حديدى استطاع أن يجذب إليه «الكسندر» ولى العهد وباشيتش رئيس الوزراء. وقائد الجيش. وكان الكولونيل ديمتربيفتش رئيس المخابرات يتولى تنظيم وتخطيط عمليات الإرهاب. وكان عليه أن يساهم في مشروع استخلاص «البوسنة والهرسك» من السيادة الشكلية التركية والسيادة الفعلية والإدارية النمساوية.وبهدوء وبرود شديدين وافق ساسة الصرب على انتهاز فرصة زيارة الارشيدوق «فرانتز فرديناند» ولى عهد النمسا ومعه زوجته الأرشيدوقة «صوفيا» لسيراييفو، لتدبير مصرع الأرشيدوق. واختار الكولونيل ديمتربيفتش يوم ٢٨ يونيو - أثناء الزيارة - لارتكاب الجريمة. لماذا ؟ لأنه يوم ذكرى معركة «كوسوفو بولى» المعركة التى خسرت فيها الصرب استقلالها في ساحة الطيور السوداء أمام قوات «أدرخان» العثماني منذ ستة قرون !

إنه ثأر مبيت ضد العثمانيين يحققه التعصب الصربى ضد النمساويين! وهذا يؤكد لنا أن عامل الدين ليس أكثر من أداة للتهييج وحشد أدوات القتال. وكانت أدوات عصابة اليد السوداء صبية لم يبلغوا بعد سن الرشد قام الكولونيل بالاشراف على تدريبهم على التصويب بمسدسات من طراز برونتج وقنابل يدوية. ومنحهم مصاريف انتقال وبدل سفر وزودهم بأقراص «سيانور» للانتحار إذا ما قبضوا عليهم. كانوا عشرين صبيا طلبة في المدارس عبروا من مقدونيا إلى البوسنة وانتظموا في سبعة

كمائن فى سيراييفو وكانت المحاولة الأولى بالقاء قنبلة فى طريق الركب الملكى إلى دار البلدية فانفجرت قنبلة وخدشت اثنين من حاشية ولى العهد ثم نجحت المحاولة الثانية عصر يوم ٢٨ يونيو بأن أطلق الطالب «برينزيب» طلقتين وهو واقف فى شارع «فرانز جوزيف» على بعد ثلاث ياردات من مركب الأرشيدوق وزوجته، اخترقت الرصاصة الأولى شريان رقبة ولى العهد واخترقت الرصاصة الثانية أمعاء الارشيدوقة وماتا بعد قليل، أما «برينزيب» فمات فى السجن. وبلغ التعصب بالصربيين أنهم أقاموا له تمثالا كبطل وطنى !

إرهاب استاشى!

التاريخ على مدى قرون بعد قرون من الصراعات الدموية والفتن الطائفية والإرهاب الدموى. توقف لفترة قصيرة بعد سقوط الصرب فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ وانسحاب حكومتها وقيادة جيشها إلى جزيرة «كورفو» التابعة إلى اليونان اليوم. وأقيم عام ١٩١٧ مؤتمر للشعوب السلافية أقام اتحادا يضم الجميع الصرب وكرواتيا وسلوفينيا والجبل الأسود تحت راية الملك بطرس ملك صربيا الذى أصبح ملكا ليوغوسلافيا ١٩١٨.

لكن الاضطرابات والإرهاب السرى لم ينته إذ لم يحتمل الكروات الكاثوليك الاندماج مع الصرب الأرثوذكس. ليس بسبب الدين بقدر شعور كرواتيا بأنها أقرب إلى غرب أوروبا ولديها ثروة من المعادن مثل: المنجنيز والبوكسيت وغيرهما وزادت حدة

الاضطرابات عام ١٩٢٨ بمقتل ستيفان راديش الزعيم الكرواتى. واضطر الملك الكسندر إلى إقامة ديكتاتورية تحكم البلاد بالحديد والنار. فأقام الكرواتيون منظمة إرهابية اسمها «الاستاشى» على غرار منظمة اليد السوداء الصربية واغتالت الاستاشى ملك يوغوسلافيا «الكسندر» عام ١٩٣٩ وأعلنوا الحكم الذاتى، وما كاد الألمان يغزون يوغوسلافيا عام ١٩٤١ حتى أعلن الكرواتيون استقلالهم وأقاموا نظاما فاشيا حسب الموضة السياسية لذلك العصر. فكان الديكتاتور «انتى بافليش» هو حاكم كرواتيا واختاروا دوق سوليتو أحد أمراء الأسرة المالكة الإيطالية ليكون ملكا على كرواتيا تحت سيطرة الدوتشى الإيطالى بنيتو موسولينى. وفى عام ١٩٤١ أعلن الديكتاتور الكرواتى الحرب على الولايات المتحدة ! ثم قرر أن هتلر أقوى من موسولينى. فعزل الملك الإيطالى من عرش كرواتيا وانضم إلى المانيا وهناك ميل نحو الألمان مازال يراود الكرواتيين حتى يومنا هذا.

صندوق باندورا

وفى عام ١٩٤٦ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سقطت جميع الديكتاتوريات الفاشية فى أوروبا مع سقوط موسولينى وهتلر. وقامت يوغوسلافيا جديدة بزعامة تيتو تتبنى الشيوعية.

وحدث استئناس للصراعات بين هذه الجمهوريات تحت النظام الشيوعى الصارم، فلما تفكك الاتحاد اليوغوسلافى، انكشف الغطاء عن صندوق «باندورا» فانطلقت مرة أخرى جميع الشرور والأطماع والشهوات الإقليمية والطائفية والعرقية.

طبيعى أن نغضب للعدوان على المسلمين ولكننا نغضب أيضا - كمسلمين - للعدوان على كل إنسان سواء كان مسلما أو غير مسلم، وطبيعى أن ندافع عن الإسلام. ولكن الدفاع عن الإسلام يعنى الدفاع عن العدل، يعنى رؤية الواقع بأبعاده الحقيقية يعنى عدم التورط فى معارك قبل أن نعرف أغراضها وأهدافها الحقيقية، والجهل بالحقائق يؤدى إلى أخطار لا حصر لها.

من بين هذه الأخطار على سبيل المثال لا الحصر.. مواجهة ما يحدث بحملات مضادة وإقامة حروب دينية.. وهذه حماقة ليس بعدها حماقة، لأن الأحداث فى جوهرها ليست صراع دين ضد دين أو عقيدة ضد عقيدة. والذين يحاربون على استعداد للهجوم على أى دين فى أى وقت لأن هدفهم ليس الدين وإنما هو الأرض والسيطرة عليها.

ومن بين الأخطار أن هناك قوى على استعداد لاستغلال صراع دينى بين المسلمين و «أوروبا» لأن هذا يهيىء المناخ ويعد الرأى العام فى أوروبا وأمريكا لتحقيق مآرب فى القدس تنتهى بالاعتداء على المقدسات الدينية الإسلامية هناك فى إطار صراع دينى شامل بين الإسلام والأديان الأخرى.

ومن بين الأخطار أن النزعات الفاشية والعنصرية التى تعود إلى أوروبا سوف تجد فى الصراع مع «المسلمين» صراعا مع قومية أو مع جنس ملون أو شعوب متخلفة وتستخدم المسلمين وقودا لتغذية التعطش العنصرى للعنف وسفك الدماء. واتخاذ العرب أو المسلمين ضحايا محل معاداة اليهودية التى اعتاد عليها

الأوروبيون فى القرون السابقة فيتحول العداء للسامية من عداء لليهود إلى عداء للمسلمين أو العرب.

نخطىء إذ نتورط فى هذا الكمين الذى تساعد عليه هذه النظرة الخاطئة للإسلام على أنه قومية وليس عقيدة.. وعلينا أن نذكر أوروبا برؤيتها الحقيقية للإسلام من خلال كبار مفكريها وفلاسفتها العظام.

شهادة هيجل وروسو

ولكن قبل أن نذكر أوروبا برؤية كبار مفكريها للإسلام علينا أن نسجل فى الوقت نفسه بكل أمانة أن هناك نظريتين للإسلام فى تاريخ أوروبا فيهما تناقض لابد من مواجهتهما.

أولاهما : نظرة رددها رجال دين اتهموا المسلمين بالعنف والقسوة ثم ربطوا بين الإسلام ومذابح الدم، وثانيتهما: نظرة شعبية أوروبية كانت تتباهى فيما يشبه أشعار أبو زيد الهلالى. بالمذابح التى ارتكبها الأوروبيون بالمسلمين، وقصص مثل حكايات عنترة بن شداد تشجع الجنود على الاحتشاد للانخراط فى الحملات الصليبية. وكان إلى جوار هذا - أيضا - بعض المفكرين مثل مونتسكيو هاجموا الشرق عموما بالاستبداد وربطوا بين الإسلام والشرق وكأنه دين محدود بالشرق ولا يستطيع الانتقال إلى الغرب.

لكن كبار مفكرى وفلاسفة أوروبا قالوا كلمة حق وصدق فى الإسلام. أولهم هيجل أستاذ العلوم السياسية الأوروبية. سواء كانت ماركسية يسارية أو مثالية رأسمالية. قال فى كتابه دروس

فى التاريخ ومن ترجمة لطفى السيد «العالم قبل الإسلام كان يعانى من الابتذال والسفه، كان البشر يواجهون اصنافا من القهر والعسف، فلما جاء الإسلام قامت فى الشرق ثورة حطمت قيود العبودية وخلصت الإنسان من التبعية والتدنى إلى مستويات وضيعة، وارتفعت بروح الإنسان تعلو بها من الأرض محلقة فى سماء تجمع البشر جميعا حول «الواحد» المطلق، الحق الذى تعود إليه كل حقيقة».

ما أعظم هذه الكلمات عن الإسلام. ومثلها قالها أكبر فلاسفة الحرية وتحرير العقل الإنسانى فى تاريخ أوروبا الحديثة. وهو «جان جاك روسو» الذى قال : شريعة الإسلام يؤمن بها نصف العالم منذ عشرة قرون. كشفت عن عظمتها، بينما التعصب الأعمى لا يرى فيها شيئا، ولكن السياسى الحقيقى يجد فى شريعة الإسلام قوة هائلة وملكة قادرة لا توجد إلا فى الشرائع الخالدة. كذلك فولتير أحد آباء الثورة الفرنسية الكبار رفض ما قاله «مونتسكيو».

إن العقل الأوروبى الناضج يعرف حقيقة الإسلام والعيب ليس فى الإسلام إنما العيب فى تخلف مسلمين لا يدركون مسئولية العقيدة التى ينتمون إليها فيتورطون فيما يتورط فيه من حرموا من العقيدة الصحيحة وكفروا بنعمة العقل الذى نهتدى به فى إيماننا بالإسلام.

الفصل الخامس

ملاحظات حول اللقاء الإسلامي الكاثوليكي

نشطت الكنيسة الكاثوليكية فى السنوات الأخيرة، وساهمت بقسط كبير فى الصراع السياسى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. وذلك بسبب السياسة التى ينتهجها البابا يوحنا بولس الثانى، البولندى المولد، فى الفاتيكان اليوم وهو لا يشارك فى الصراع السياسى فحسب بل يعمل على استثمار اليقظة الدينية التى أصبحت ظاهرة عالمية، سواء فى المجتمعات الإسلامية أو المسيحية. هذا فضلا عن حالة التعصب والتطرف الدينى الصهيونى اليهودى.

لاهوت وناسوت

وحتى نتفهم الأسس التى يتحرك معتمدا عليها بابا الفاتيكان، علينا أن نلم بنبذة مختصرة عن الكاثوليكية. فهى تؤمن بأن السيد المسيح له طبيعة مزدوجة. طبيعة إلهية «لاهوت» وطبيعة إنسانية

«ناسوت» فالمسيح عليه السلام فى نظرهم كان إنسانا فى تصرفاته العادية مثل كل البشر، يأكل ويشرب وينام ويمشى على قدمين ويمارس كل ألوان النشاط الإنسانى كإنسان وليس كإله.. أما معجزات السيد المسيح كاحياء الميت وشفاء الأبرص وغير ذلك مما رددته الأناجيل فذلك يصدر عن الطبيعة الإلهية المنفصلة عن الطبيعة الإنسانية. أى أن المسيح فى اعتقاد الكاثوليك له طبيعة مزدوجة.

وهذا التصور الكاثوليكى مرفوض تماما من المسيحيين الارثوذكس وبالذات من أقباط مصر الذين لا يؤمنون بهذا الازدواج فى شخص السيد المسيح، ويرون أنه من طبيعة واحدة، وأن «اللاهوت» «والناسوت» مندمجان لا انفصام بينهما.

اليوم وغدا

ومن هنا كان المسيحيون الأرثوذكس الشرقيون، يركزون فى عقيدتهم وممارستهم لتعاليمها على السعى فى طريق الرب، والخلاص من الحياة الدنيا حياة الخطيئة أما الكاثوليك فهم يرون أن السيد المسيح كان فى بعض طبيعته إنسانا، ولذلك فللإنسان أهميته، وللعمل الدنيوى الذى يقوم به الإنسان أهميته. وأن من الواجب التركيز على الجانب الدنيوى مثل التركيز على الجانب الإلهى. ولقد كان القديس امبروز هو أول من قال فى القرن الرابع الميلادى وقبل ظهور الإسلام: «إننا نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدا ونعمل لآخرتنا كأننا نموت غدا» وهى حكمة رددها المسلمون فيما بعد.

ولأن الكاثوليك يعملون للـدنيا، تراهم يهتمـون ببناء المدارس، والمستشفيات والملاجىء والمكتبات ومعاهد الثقافة والأبحاث فى الآثار وغير ذلك من المجالات الاجتماعـية والتاريخية أو ما نسميه بالإنسانيات.

قسس ثــوار

ومع تطور المذاهب الـسياسيـة والفكرية فى العصـر الحديث، طورت الكاثوليكية نـشاطها الإنسانى، فكـان لها فلاسفـة ورجال فكر، وتدخلت فى الوقت نفسه فى الجدل السياسى سواء كان ذلك على المستوى النظرى أو العملى.

ومن الأمثلة البارزة على النشاط السياسى العملى لرجال الدين الكاثوليك تحـت قيـادة البـابا ورئاسـتـه الدينيـة دور الكنيسـة الكاثوليكية فى بـولندة، فى تحريك الأحداث السـياسية وتشـجيع نقابة التضـامن على معارضـة الحزب الشيوعى والنظام الشيوعى الحاكم.

وكذلـك برز نموذج جـديد لرجال الدين الكاثوليك، فى أمـريكا الجنوبية، يشـتركون مع الثـوار، ويدعون إلى الثـورة الدينية التى تطالب بمطالب اجتماعية لصالح الطبـقات الفقيرة المطحونة بقوى الامبريالية والشركات العالمـية. ومن المشاهد المألوفة بين الثوار فى أمريكا الجنوبية، القس الكاثوليكى الثائر.

الإسلام والوثنية فى إفريقيا

وبالمثل امـتد نشاط الفـاتيكان إلى إفريقيـا فكانت زيارة البابا الأخيرة لإفريـقيا، حيث فتح أبواب اللقاء مع المـسلمين فى تحرك

دينى لا يخلو من شبهة سياسية .

والتنافس بين الدين الإسلامى والدين المسيحى، قائم فى إفريقيا. وهو تنافس شريف. وما زال التفوق فيه للإسلام. فالذين يدخلون الإسلام من بين الوثنيين الإفريقيين أكثر بنسبة كبيرة من الذين يدخلون الكنيسة الكاثوليكية.

والسبب فى انتشار الإسلام، هو أن الإفريقى الذى يريد أن يتخلص من أية قيود قبلية تقيده، خاصة قيود الولاء لآلهة القبيلة التى تحاصره بعادات معينة ورؤية محدودة الافق للعالم. مثل هذا الإفريقى الوثنى يكتشف فى الإسلام حرية تامة، تفتح له كل الأبواب على مصراعيها ليتصل مباشرة بربه، يعبده ويناجيه بلا وساطة ولا قيد، وإذا احتار فى أمر تعاليم دينه فليس المطلوب منه أكثر من أن يستفتى قلبه باعتبار أن الإسلام هو دين الفطرة السليمة وأن الإنسان - باجماع علماء المسلمين - يولد مسلما بفطرته، وحتى إذا لم تبلغه الرسالة المحمدية، ولكنه لم ينكر الله ولم يكفر به أو يقطع بعدم وجوده، بل ظل بفطرته يتساءل عن سر الكون، فهو إذا مات على هذه الحال، يموت مسلما. لأنه مات بفطرته.

هذا بينما المسيحى، لا يكون مسيحيا، ولا تقبله السماء إلا عن طريق بيت الرب، وهو الكنيسة، التى تقوم برجالها كمؤسسة وسيطة بين الإنسان وربه. فالمسيحى لا ترضى عنه السماء، إلا إذا رضيت عنه الكنيسة وقبلته كواحد من خرافها التى ترعاها.

وابن الغاب الإفريقى، يميل إلى حرية الإسلام، وتحرره من

قيود الوساطة، وعلاقته المباشرة البسيطة بالرب. وهو يقبل هذه البساطة أكثر من قبوله لطقوس الكنيسة ومراسمها.

ولكن الكاثوليكية تقترب من الافريقى عن طريق الخدمات الإنسانية التى تقدمها له. فإذا كان الإسلام يطلق للافريقى البدائى حريته، ويقدم له رؤية للعالم متسعة الأفق فالكاثوليكية من ناحية أخرى تربط الافريقى بالكنيسة مقابل رعايته بالخدمات الثقافية والتربوية، والمدارس والمستشفيات، والمراكز التى تتولى تطعيم الناس ضد الأوبئة، وتعرض عليهم الأفلام السينمائية، وتقدم الخدمات العلاجية والتمريضية للمحتاجين إليها بالمجان.

زواج المسلم والمسيحية

ولقد سعى البابا بولس إلى التفاهم مع الإسلام، خلال زيارته لإفريقيا، خاصة فى تلك الزيارة التاريخية التى قام بها للملك الحسن، وخطب فى المسلمين الذين قابلوه بترحاب كبير.

ولقد سبق أن قام البابا السابق «بيوس» بخطوات فى نفس الطريق، وهو التفاهم مع الأديان الأخرى فى مواجهة الإلحاد، حتى أنه سمح للكنيسة الكاثوليكية بأن تقبل ـ مثلا ـ عقد زواج مسلم بمسيحية كاثوليكية، هذا بينما الكنيسة الأرثوذكسية لا تقبل عقد مثل هذا الزواج .

والتفسير الذى تقدمه الكنيسة الكاثوليكية لمبادراتها للتفاهم والتعامل مع الأديان الأخرى خاصة الإسلام، هو أنها تسعى إلى تحقيق هدفين : أولهما: أن تفتح المجال أمام الكاثوليكية لتتعرف عليها المجتمعات ذات الحضارات والعقائد المغايرة، وثانيهما : أن

تسعى إلى التفاعل مع النواحى الايجابية فى العقائد الأخرى مع تجاهل ما ترى أنه عوامل سلبية، وتغض النظر عنها فى سبيل تحقيق هذا التفاهم.

زوجات بالعشرات

ومن الطبيعى أن يكون من أهم ما واجهه القسس الكاثوليك فى إفريقيا خاصة فى مجتمعاتها البدائية. قضية تعدد الزوجات فالإفريقى قد يتزوج عشرات. ولا يعتبر ذلك خروجا عن المألوف، بل إن من مظاهر الهيبة والرياسة فى القبيلة أن تكون له زوجات بالعشرات.

والإسلام وضع حدودا لمثل هذه الزيجات وتوقف بها عند أربع. والآن تحاول الكنيسة الكاثوليكية فى استراتيجيتها الجديدة للتعامل والتفاهم مع الحضارات والعقائد الأخرى أن تتغاضى عن مسألة تعدد الزوجات فى سبيل تعريف الإفريقى البدائى بالكاثوليكية، ومحاولة اقناعه بالانضمام إلى الكنيسة. لأن مثل هذا الإفريقى لن يفهم كيف يحرمه الدين ـ أى دين ـ من حقه فى الزوجات.

وهذه واحدة من المشاكل التى تواجهها ارساليات التبشير الكاثوليكية فى إفريقيا.

وعلى أية حال. أثارت رحلة البابا انتقادات اتخذت اتجاهين متعارضين :

اتجاه، هاجم الزيارة بشدة، باعتبار أن البابا يقود حملة

للانتصار للرجعية والامبريالية، ولحشد وتجنيد الجماهير باسم الدين ضد الشيوعية. وهو يعقد تحالفا سياسيا لا دينيا مع الإسلام ليورط المجتمعات الإسلامية، وأغلبها دول تتبنى مواقف عدم الانحياز، فى صراع ليس من مصلحة الأفارقة ولا المسلمين الدخول فيه.

والبابا بولس، البولندى المولد، يواصل بذلك عملية تأليب الرأى العام وهو يقوم بنشاطه السياسى لإحباط ثورات الشعوب، ضد الامبريالية. وتحويل طاقات الثوار إلى اتجاهات أخرى باسم الدين، لتفقد الثورة فاعليتها ضد القوى المستغلة التى تضطهد البشر.

أما النقد الثانى، فيأتى من جانب جماعات إسلامية متطرفة، ترى أن البابا يريد استثمار اليقظة الدينية التى تعم عالم اليوم لمصلحة التبشير للكاثوليكية، وأنه يريد أن يكون له نفوذه، عن طريق الاتصال بالمجتمعات الإسلامية، والتفاهم معها وعقد صلات الصداقة معها، حتى تتاح الفرصة كاملة للإرساليات الكاثوليكية لتؤدى رسالتها.

ولست ممن يعارضون قيام صلات بين الفاتيكان والمسلمين، فلا معنى ـ سياسيا ـ لرفض التفاهم بل التعاون، حتى لا تنفرد الصهيونية بإقامة العلاقات مع الفاتيكان.

أما من الناحية الدينية، فنحن كمسلمين علينا أن نحترم أصحاب الديانات السماوية وأهل الكتاب، وأن نكون شهداء عليهم، ونتعامل معهم بالقسط، أى بالعدل.

وعلينا قبل إن نوجه الاتهامات، أن نراجع أنفسنا ألف مرة، ونقول إن بعض الظن إثم.

ولكن بعد ذلك، علينا ألا نتورط باسم الدين، فى مواقف سياسية لا شأن لنا بها، فالعلاقات الحميدة بين الأديان، نقول لها أهلا وسهلا، أما خلط التفاهم بين الأديان، بالمواقف السياسية التى تخدم القوى السياسية، فهذا نقول عنه إنه لعب بالنار.

الفصل السادس

ملاحظات حول





لا يعـــرف الإســلام هذا الصـــراع بين الشـــرق والغرب، أو هو لا يعترف به، ذلك لأنه جاء فى الذكر الحكيم: ﴿ولله المـشرق والمغـرب فأينمـا تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾.

هذا المفهوم الإســلامى لا يقابله رؤية مماثلة من الآخرين. وكما قال ذات مرة، أحد المـستشرقين، كان الذى يعيش فى الغـرب فى العـصور الوسطى، يـتصـور المـسلم تحت وطأة دعاية مـضادة، مـثل تلك التى يتصـور بها من يعيـش فى الغرب اليوم البـلاشفة. ولقـد كانت القصص التى يرونهـا فى الغرب عن العرب فى العصور الوسطى، تصور الـعربى إنسانا غليظا شرسا يضع خنجـرا بين أسنانه، وينظر فى وحشـية إلى ضـحاياه وهو يستعد للانقضاض عليهم والفتك بهم.

الخوف والانبهار

ولقد كانت الثقة مفقودة تماما بين دنيا المسلمين أو دار الإسلام، ودنيا الأجانب. كل طرف يستريب فى نوايا الطرف الآخر ويتربص به الدوائر. ولو راجعنا ما كتبه رجال من الغرب عن البلاد العربية فى تلك الأزمان لقرأنا العجب، وفيها خليط من التهويل والكذب وخليط من الانبهار والخوف. ولن انسى تلك الفقرات من مذكرت الرحالة والمؤرخ الفرنسى جان دى جوانفيل الذى صاحب الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ضد مصر واستولت على دمياط ثم انهزمت فى المنصورة حيث أسر لويس وافتدى نفسه ليعود إلى بلاده بمبالغ طائلة من المال. إن دى جوانفيل يصف المعارك التى دارت مع المسلمين وآلاتهم الحربية المفزعة التى كانت تصب النيران على قوات لويس الذين جعلوا منه قديسا لطيبته وربما لسذاجته. وكان حسب وصف المؤرخ الفرنسى يركع الملك الفرنسى على ركبتيه فى أرض المعركة والنيران تحرق كل ما حوله ويبكى ويولول ويبتهل إلى الله أن ينقذه من شر هؤلاء الشياطين بألسنتهم النارية الحارقة. إن هذه الحملة كانت فى عام ١٢٥٠ م وما زالت آثارها راسبة فى الوعى الأوروبى، وفى ضمير الحضارة الغربية على نحو ما. وللأسف ليس لدينا مستغربين مثل المستشرقين لدى الغرب يدرسون لنا الغرب ونفسيته والعوامل الكامنة فى أعماقه الثقافية والتى تشكل تصوراته عن العالم الإسلامى، هذا بينما المستشرقون فى الغرب لا يتركون كلمة أو اثرا إلا ودرسوا وفحصوا ما يلاقونه ليعرفوا بأستمرار كل صغيرة وكبيرة عن عالم الإسلام والمسلمين.

وليمة الذئاب

والعلاقة التى كانت قائمة على الريبة والخوف بين ثقافة الإسلام والثقافة الأوروبية، تحولت مع الثورة الصناعية فى أوروبا إلى علاقة قائمة على السيطرة والسيادة من جانب أوروبا والخضوع أو الثورة من جانب العالم الإسلامى. وكان الغرب قد امتلك صناعة الصلب واستطاع أن يطمئن إلى قوته العسكرية فى مواجهة عالم المسلمين، ومن هنا زال الخوف ـ ولو مؤقتا ـ وتحولت نظرته إلى التعامل مع بلاد الإسلام على أنها مستعمرات يجب تمزيقها وتفتيتها بحيث لا تكون بينها رابطة، وبحيث لا تتبع قوة واحدة تسيطر عليها.

وإلى جانب هذا، انطلق آخرون فى الغرب ينظرون إلى بلاد الإسلام كمتاحف، أو أماكن للتسلية والمتعة والبحث عن كل ما هو طريف، أو بلاد لممارسة أحلام رومانتيكية تزيف الواقع الإسلامى وتحوله إلى صور غريبة خيالية لا تمت إلى الإسلام وتقاليده بصلة.

وهكذا تحولت بلاد المسلمين إلى وليمة للذئاب، وأصبح المسلمون كالأيتام فى مأدبة اللئام، ومضى الأقوياء فى الغرب ينفذون مخططات التقسيم المادى الذى ينهش الكيانات العربية، والتقسيم المعنوى والأدبى الذى يضعف القيم الروحية والمعنوية، ولم يعد أصحاب السيف الباتر يرون عالما إسلاميا ولا أرضا إسلاميا ولا تراثا فكريا إسلاميا بل كان ما أمامهم مواقع جغرافية للاقتسام ومساحات من الأراضى يتم توزيعها فى مأدبة اللئام

ليستفيد منها من يريد استخراج المواد الخام وكنوز الأرض المطلوبة للمصانع الأوروبية.

توزيع الأرض العربية

وتحولت الكيانات الحضارية الإسلامية فى الشرق الأوسط إلى ممرات وطرق بين أوروبا والقارة الأسيوية، فهى مجرد معابر للهند أو استراليا أو الصين واليابان وسيطرت انجلترا من خلال الأراضى الإسلامية المطلة على البحر الأبيض ثم الأحمر، ثم الخليج على كل الطريق إلى الهند، أما فرنسا فقد اختارت أن تخترق العالم العربى الإسلامي بأن تنفذ من شمال إفريقيا إلى أواسطها عبر الصحراء. وهكذا استولت انجلترا على مصر بينما استولت فرنسا على معظم الساحل الشمالى لإفريقيا. واحتلت ايطاليا الأرض الليبية بين انجلترا فى الشرق وفرنسا فى الغرب، واحتلت اسبانيا جزءا من شمال المغرب. وعندما قامت الحرب العالمية الأولى لم تعد الأرض العربية أو الإسلامية أكثر من ساحات للقتال وممرات للقوات العسكرية البرية أو البحرية، واراضى للمناورات، وبلغ التنافس على تقسيم الأراضى العربية ذروته بين فرنسا وانجلترا باتفاق «سايكس بيكو» الذى عقد فى عام ١٩١٦. وبمقتضى هذا الاتفاق انضمت فلسطين فى الشرق من قناة السويس إلى السيطرة الانجليزية التى حرصت على احتلال جميع مداخل ومخارج كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومن جبل طارق إلى عدن. وبعد أن كانت قد وقعت معاهدات الكويت والبحرين ومسقط وعمان فى القرن الثامن عشر لتشرف على مضيق هرمز إلى الخليج.

مشروع فلسطين الألمانى !

وكانت الحرب العالمية الأولى على المستعمرات والأسواق، بين انجلترا وفرنسا وروسيا من ناحية وألمانيا والنمسا وتركيا من ناحية أخرى. أى أن القيادة الإسلامية الممثلة فى الخلافة الإسلامية العثمانية كانت متحالفة مع ألمانيا. ولكن هذا لم يمنع أن تسعى ألمانيا إلى اقتسام جزء من الغنيمة فطالبت منذ أيام حكم فردريك الثانى بفلسطين لتجعل منها دولة «ألمانية مسيحية!» ولتحول إليها بعض تيارات الهجرة من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فبدلا من الهجرة إلى الغرب، تكون الهجرة إلى الشرق العربى. وكان هدف ألمانيا بطبيعة الحال أن تستخدم الهجرة الألمانية إلى فلسطين لتكون قاعدة غزو تسيطر على موقع استراتيجى بالقرب من قناة السويس، وعند إلتقاء القارتين آسيا وإفريقيا. ومن هذه القاعدة تستطيع أن تفرض ألمانيا «القيصرية» شروطها على الدول الاستعمارية الأخرى وتجبرها على التنازل عن بعض الأسواق للصناعات والتبادل التجارى الألمانى.

وهكذا كان الجميع، حلفاء للمسلمين أو خصوما لهم، يريدون اقتسام جزء من أمة الإسلام. وكانوا يرون أهمية التركيز على الأرض العربية وعلى الدول العربية كمدخل للتأثير والسيطرة على العالم الإسلامى كمساحة استراتيجية من الأراضى والممرات بين أوروبا ومصانعها وآسيا بخاماتها وأسواقها المكتظة بالبشر فى الهند والصين.

غــريزة البقــاء

والآن، وبعد أن انتهت صراعـات الأسواق بين القوى الأوروبية والأميركية إلى مأساة حربين عالميتين هلك فيها عشرات الملايين من البشــر، استردت دول وشــعوب العالم الإســلامى استقـلالها، وفرضت عليها مشاعر غريزة الرغبة فى البقاء أن تتخلص من هذه التمزقات التى انهالت عليها من القـوى الأجنبية الخارجية، وكانت أولى تلك المـحاولات تلك التى دعا إلـيها رجـال مثل جـمال الدين الأفغـانى فى القرن التاسع عـشر، وكتب الشــيخ محمد عـبده فى مجلة العروة الوثقى يصف حالة التمزق التى عانى منها المسلمون فقال بأسلوب عصره فى الانشاء الأدبى.

أليس لكل علة دواء ؟!

«امتد لها ـ أى الأمة الإسلامـية ـ السلطان للبعيد عنها والدانى إليها.. وعلت لها الكلمة وكملـت القوة فاستعلت بآدابها على الآداب وسادت أخلاقـها وعاداتها على مـا كان من ذلك لسابقيـها.. وبعد هذا كله.. انتثـر منظومهـا وتفرقت فيـها الأهواء وانشقت العـصا وتبدد مـا كان مجـتمعـا وانحل ما كان منعـقداً وانفصـمت عرى التـعاون وانقطعت روابط التـعـاضد.. نعم رأيت كـثيـرا من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقـويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصـــحت ثم مـرضــت، ولكن أليس لكل عـلة دواء ؟ بلى وأسفـا ما أصـعب الداء وما أعـز الدواء وما أقل العارفـين بطرق العلاج، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهى لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه.. استغفـر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما

انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها شئون نفسه».

وينتهى الشيخ محمد عبده بأن العلاج الناجع «إنما يكون برجوعها - أى الأمة - إلى مقاعد دينها والأخذ بأحكام على ما كان فى بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة».

أمور الدنيا والدين

ولكن هذه الدعوة لم تكن كافية، لأنها وقفت عند حدود التهذيب والأخلاق، والأمر كان يحتاج إلى مواجهة سياسية، وكانت هناك محاولات أخرى لجمع شمل المسلمين، من أهمها تلك التى عقدها المسلمون من مصر والسعودية والهند فى مكة المكرمة عام ١٩٢٦، وتوالت بعد ذلك محاولات لجمع صفوف المسلمين وإقامة ندوات أو اتحاد أو رابطة، حتى تطور الأمر إلى إقامة منظمة المؤتمر الإسلامى على مبادىء تجمع بين أمور الدنيا والدين وأهداف سياسية تؤكد دور الإسلام ومسئولية المسلمين بالنسبة للسياسة الداخلية على مستوى الأمة أو السياسة الخارجية على مستوى العالم أجمع. ومع نشأة هذا المؤتمر الإسلامى، أصبح المطلوب هو معرفة كيف تدار الأزمات التى تواجهها الأمة الإسلامية فى العالم الحديث، العالم الذى تعيش فيه قوى نووية، وعالم التكنولوجيا وثورة المعلومات، فأية محاولة للتخلص من حالات التمزق التى عانت منها الأمة الإسلامية خلال القرنين الماضيين لن تتم بنجاح حتى يتم إدراك طبيعة الواقع العالمى

المعاصر من خلال التمسك بتعاليم الإسلام لاكتشاف الدور الحقيقى للشعوب الإسلامية فى العالم الحديث. وحتى يتصالح ما ورثناه من قيم خالدة للإسلام مع الجديد من مخترعات العصر واكتشافاته. مع الثقة فى أن هذا الجديد لن يطرد القديم، ولكن على أن يثق القديم فى الجديد، ويروى فيه استمراراً للكون الذى صبغه الخالق، فهذا هو قدر المسلمين، إذا شاءوا البقاء بمشيئة الله.

الإسلام .. والعروبة

حان الوقت لمراجعة جادة لبعض أفكارنا حول الإسلام والعروبة.

ولا يخفى على أحد أن الأمة الإسلامية تواجه أزمات متلاحقة، ولقد جرت مناقشات بينى وبين بعض الخبراء السياسيين فى مقر حلف الأطلنطى فى بروكسل. انهالت علىّ الأسئلة عن الإسلام وهل أصبح هناك أكثر من إسلام، لأن الإسلام فى إيران يحارب الإسلام فى العراق والإسلام فى ليبيا يدخل فى معارك مع الإسلام فى تشاد والإسلام فى لبنان يحارب بعضه بعضا أكثر من محاربته لإسرائيل. هذا بينما كان هؤلاء المتحاربين أو المتخاصمين أعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى، وقد وقعوا جميعا على ميثاق المنظمة الذى ينص على أن يحل الأعضاء ما قد ينشأ بينهم من منازعات بحلول سلمية، كالمفاوضة أو الوساطة أو التحكيم، كما ينص ميثاق منظمة المؤتمر على امتناع الأعضاء عن استخدام القوة أو التهديد باستعمالها ضد وحدة وسلامة

الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة عضو فى منظمة المؤتمر.

طبيعى إن مبادىء منظمة المؤتمر الإسلامى، إذا طبقناها على الواقع، وجدنا أن النصوص المكتوبة بينها وبين هذا الواقع فجوة كبيرة، ومن هنا يبدو التناقض بين شكل منظمة المؤتمر التى تجمع الدول الأعضاء المسلمين، وبين الواقع الذى يقول إن هناك حروبا أو خلافات باردة أو ساخنة بين أعضاء فى المنظمة وأن المفاوضات أو الوساطة أو التحكيم لم يحقق ما هو مطلوب منها لحقن دماء المسلمين. وهذا هو ما يجعل الأوروبيين أو غيرهم يتساءلون ويتشككون، هل هناك إسلام واحد، وهل الإسلام هو دين التوحيد كما يقول المسلمون، أم أن الحديث عن الإسلام أصبح فى تلك البلاد وسيلة لستر مصالح واحقاد واطماع شخصية ولو إلى حين.

خطة الدعوة

ولا شك أن المدخل الإسلامى الصحيح، هو فى إدراك المسئولية العربية بالنسبة للإسلام، وهى مسئولية تشمل العرب جميعا، ويكفى أن نتذكر أن خطة الدعوة الإسلامية كما وضعها الرسول ﷺ كانت تعتمد على استراتيجية واضحة، وهى توحيد العرب، وتحقيق التآلف والتفاهم بين قبائلهم، وكان هذا التوحيد هو النواة الصلبة التى هيأت الإرادة القادرة على نشر الإسلام فى العالم كله، ومن هنا يتحمل العرب مسئولية تاريخية لا يمكننا أن نتجاهلها. وكما أن الإسلام يزدهر بقوة العرب ووحدة صفوفهم،

فالعكس أيضا صحيح، فإذا ما بدت مظاهر التفكك بين العرب انعكست بالضرورة هذه المظاهر ونشط تأثيرها الضار فى الأمة العربية على امتداد المعمورة.

وجدير بنا أن نواجه بحسم تلك الدعاوى الخاطئة التى حاولت أن تضع الدعوة للإسلام فى مواجهة الدعوة للقومية العربية وكأنهما دعوتان متناقضتان، فالصياغة الصحيحة هى التى تقول أن الدعوة للقومية العربية والانتصار لها، والدعوة إلى توحيد قوى العرب هى بأى صورة مقدمة طبيعية وضرورية لاستقرار عربى يصون الأرض العربية التى تضم أماكن إسلامية مقدسة.

والإسلام له جذور عربية ممتدة فى الأرض العربية، فإذا أراد المسلم أن يصلى فهو يتجه شطر البيت الحرام، وهو يؤدى فريضة الحج بأن يشد الرحال إلى مكة ويطوف حول الكعبة وهى أرض عربية مقدسة. ولغة القرآن الكريم هى اللغة العربية. والنص العربى القرآنى هو نص مقدس. إذن لا مجال للتفرقة أو اصطناع تناقض بين العروبة والإسلام، والأسانيد القرآنية التى تؤكد رابطة العروبة بالإسلام أكثر من أن تحصى «إنا أنزلناه قرآنا عربيا » و «لسانا عربيا» و «أنزلناه حكما عربيا». وليس هذا هو مجال دراسة حول العروبة والإسلام. ولكن يكفى أن نؤكد على أمرين :

• رفعة التواضع

أولهما : إن الارتباط واضح، وثانيهما: إن الارتباط ليس معناه أن العربى المسلم له ميزات خاصة على الأعجمى المسلم، فلا

فضل لاحد على الآخر إلا بالتقوى. وهذه هى عبقرية الإسلام، والقفزة الحضارية والعقائدية التى استطاع أن يحققها للإنسانية جمعاء. فالإسلام لم يختص شعبا بالذات، ولم يتحول إلى احتكار تستفيد منه طائفة مختارة، مثلما يفعل الصهاينة بالدين اليهودى. والإسلام لم ينكر الدنيا بما فيها، واعتبرها أرض الخطيئة ومملكة الشيطان، لقد جاء الإسلام لكل البشر وعاملهم بلا تفرقة عنصرية على أن الجميع سواء.. وهكذا أصبح للإسلام جغرافيا، أى له بيت وهو بيت عربى فى أرض عربية، كما أن للإسلام لغة وهى اللغة العربية، ولكن فى الوقت نفسه ليس للعربى المسلم أن يتميز عن بقية المسلمين ويكفيه فخرا شرف خدمة الإسلام فى بيته وبين أهله وبلغته العربية. وبمعنى آخر أن الشرف الذى يناله العرب، هو أن يكونوا فى خدمة الإسلام. وأن يكونوا على مستوى بالغ الرفعة والسمو من التواضع.

المساواة والندية

ومعروف أن من مبادئ المؤتمر الإسلامى المساواة التامة بين الدول الأعضاء. وهناك نوعان من العضوية للمؤتمر: عضوية أصلية وتشمل جميع الدول التى وقعت على ميثاق المؤتمر فى شهر مارس ١٩٧٢ فى جدة بالسعودية. وهى ثلاثون دولة. ثم هناك العضوية بالانضمام وهى الدول التى تم قبولها بعد توقيع الميثاق. ومن بينها منظمة التحرير الفلسطينية وكثير من الدول الإفريقية والأسيوية مثل : الجابون وغينيا بيساو والكاميرون وبنجلاديش وسلطنة برونى وغيرها. والشرط الوحيد للانضمام هو أن تكون الدولة إسلامية ومستقلة وصاحبة سيادة. دون

تحديد لمفهوم الإسلام، وهل هو يتوقف على نسبة عدد السكان المسلمين فى الدولة، أو أن هناك نصا فى دستور البلد العضو يعلن أن الدين الرسمى للدولة هو الإسلام، أو أن يكون طلب الانضمام للعضوية بسبب موقف من قيادة الدولة، مثل قبول عضوية الجابون فى منظمة المؤتمر بعد أن أعلن الرئيس عمر بونجو إسلامه. ولكن سواء كان الأمر هذا أو ذاك، فلا توجد أية تفرقة، من أى نوع بين الأعضاء الأصليين فى المؤتمر والأعضاء الذين دخلوا المؤتمر عن طريق الانضمام لأحد الأسباب التى ذكرناها أو لغيرها. فالمجتمع الدولى الإسلامى يقوم على المساواة التامة والندية الكاملة. ولعل هذا هو ما يفسر أحد جوانب اليقظة الإسلامية على المستوى العالمى والتى أصبحت واضحة المعالم خلال هذا الربع الأخير من القرن العشرين. فالإسلام يدعو الجميع إلى العروة الوثقى دون تفرقة أو تمييز، وهو يقدم للشعوب الإفريقية التى عاشت لعدة قرون فى ظل معتقدات قبلية وثنية، فرصة لا مثيل لها من الانفتاح على العالم والكون كله من خلال الإسلام. فبعد أن كان الفرد فى القبيلة يعيش فى عالم محاصر بحدود إله قبيلته ومعتقدات محلية وطقوس خاصة إذا بكل السدود والقيود التى كانت تحاصر هذا الفرد تنهار، يفتح له الإسلام آفاقا بلا حدود من الرؤية والتأمل وتصور الحياة الدنيا والآخرة.

ولقد جاء فى مقدمة ميثاق المؤتمر الإسلامى أن الأعضاء المشتركين فى المؤتمر مقتنعون بأن عقيدتهم المشتركة ـ وهى الإسلام ـ هى العامل القوى لتحقيق تقارب الشعوب الإسلامية

وتحقيق تضامنها. وهى تستطيع أن تحافظ على القيم الإسلامية سواء كانت روحية أو اجتماعية أو اقتصادية. وإن تراث الحضارة المشترك بين هذه الدول، وهو التراث الإسلامى قائم على مبادىء العدل والتسامح وعدم التمييز.

أهداف ومسئوليات

إذن، القول بالصلة بين العروبة والإسلام، لا تعنى بحال من الأحوال تمييزا أو تفضيلا للعروبة على بقية الشعوب الإسلامية غير العربية، ولكن من ناحية أخرى لا يعنى عدم التمييز إلغاء العروبة أو تجاهلها كعامل اساسى فى خطة الدعوة للإسلام، تاريخيا وجغرافيا وحضاريا.

ولذلك جاء من بين أهداف المؤتمر نص واضح على تنسيق العمل بين الدول الأعضاء من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها ودعم كفاح الشعب الفلسطينى ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أراضيه، هذا بالاضافة إلى دعم كفاح جميع الشعوب الإسلامية للمحافظة على استقلالها وحقوقها الوطنية.

إن المحافظة على الأرض العربية وعلى الأماكن المقدسة فى أرض العرب هو هدف من أهداف المؤتمر الإسلامى. وهذه مسئولية هى فى تقديرى لها الأولوية، إذا أردنا أن نتبع الخطة الإسلامية الصحيحة لدعم الإسلام، والتى تعتمد على استراتيجية دعم القوى العربية وتوحيد صفوفها، لأنها مصدر طاقة حقيقية وأصيلة فى الدعوة للإسلام. وقوة العرب تبدأ ولا شك من تحرير

الأرض العـربية ومن صنع سـلام عادل واسـتقـرار حقيـقى فى الأرض العربية.

حذار من الدس والوقيعة

ومن هنا نتطلع إلى المؤتمر، كاجتماع لتهدئة الخواطر وتصفية مـا بين النفـوس أولا بين العرب لأن هذا هـو المسـار الحـقيـقى للدعوة الإسـلاميـة كما خـطط لها الرسول الكـريم. وأى قدر من التفـاهم أو التنسيق يحقـقه العرب فـيما بينـهم. ستكون له آثاره المفـيدة للعالم الإسلامـى كله، سواء فى إيران أو لبنان أو فى أى أرض يواجه فـيها المـسلمون بعضـهم بعضا بينمـا يتربص بهم الأعداء الـحقـيقـيون ليـفتكوا بالجـميع بعـد أن تنهار قـواهم فى الصراع المرير بينهم، إن قدرة العرب على إدراك هذه المسئوليات فى تواضـع، سوف تؤدى إلى حل مـشاكل قد لا يخطر ببـال أحد اليوم أنه من المـمكن حلها. سواء فى إيران، أو الفـلبين، فى لبنان أو تشاد أو السودان. هذه هى الرؤية الاستراتـيجية التى تستطيع أن تستوعب كل المناورات المحتملة من قبل الذين يريدون الهيمنة على الأرض العربيـة، ويسعون الـيوم ـ ربما فى الخـفاء ـ للدس والوقيعة وتسميم الآبار.

معاداة العرب أخطر من معاداة السامية

أول مرة سمعت فيها عن المذبحة الكبرى التى يهلك فيها البشر ويسمـونها «أرمـا جدون» ARMAGEDDON كان بمناسـبة قـصة رواها السياسى الانجليزى العتيد «ونستون تشرشل» فى مذكراته عن الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨.

وكان تشرشل يتحدث عن الذين توقعوا قبل نشوب الحرب العالمية التى هلك فيها ملايين البشر، إن الأوضاع والظروف السياسية ستبقى كما هى عليه، ولا جديد تحت الشمس. فالعلاقات الدولية لن تتغير، وأصدقاء اليوم هم اصدقاء الغد وكل غد.. وأعداء اليوم هم أعداء الغد وكل غد.

وقال تشرشل أن من يضع حساباته على أن كل شىء مستقر، ولن يطرأ عليه تغيير، إنما يعيش فى وهم كبير، وروى تشرشل القصة الآتية:

عندما كان ضابطا شابا فى الجيش الانجليزى، عام ١٨٩٥ أى فى نهاية القرن التاسع عشر. دعا تشرشل أحد كبار رجال السياسة فى ذلك الوقت وهو سير «وليم هاركورت» إلى بيته فى مأدبة لتناول طعام العشاء.

وأثناء المأدبة، انطلق «سير وليم» فى الحديث مع ضيوفه، معبرا عن أفكاره السياسية، كرجل من رجال العصر الفكتورى، عصر الامبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس، والتى تسيطر بأساطيلها على كل بحار العالم، وقال السياسى العجوز:إن كل شىء قد استقر على ما هو عليه وهكذا سوف تمضى الحياة.

ولكن الضابط الشاب ونستون تشرشل، تعجب لهذه الرؤية السياسية وألقى بسؤال يبدو ساذجا غاية فى السذاجة. سأل «سير وليم» :

– وماذا بعد ؟!

فنظر إليه الرجل فى دهشة وقال :

- يا عزيزى ونستون.. إنى بعد تجـاربى الطويلة فى الحياة قد اقتنعت بأنه لا شىء يحدث أبدا !!

ويعلق تشـرشل ساخرا على هذه الاجـابة فيـقول : إنه منذ أن سمع اجـابة «سيـر وليم هاركورت» اثناء تلك المـأدبة، والأحداث تتوالى وتتصـاعد لتتحدى قول «سـير وليم» بأنه لا شىء يحدث، وأن الأحوال مـستـقرة كمما هى عليه. وذهب السـياسى العـجوز بأيامه المستقرة، بينمـا مضت الأحداث فى تصاعدها حتى وصلت إلى الحرب العالمـية الكبرى، أكبر مذبحـة بشرية فى التاريخ، أو كـمـا تصـورها تشـرشل فـى ذلك الوقت «أرمـاجـدون» القـرن العشرين.

العـداء المكتـوم

ولقد كان المأمول أن تكون مـذبحة الحرب العالمة الأولى، هى نهايـة المذابح البـشرية على هذا النطاق العـالمى المخـيف. ولكن المذبحة تكررت بصـورة أقسى وأشد هولا فى حرب عـالمة ثانية فى الأعوام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ مـيلادية. ومنذ ذلك الوقـت والحروب الصـغيرة تنشب هنا وهناك، من كـوريا وفيتنام إلى إيران والعراق فى الشـرق إلى حـروب أمـريكا الوسطى والجنوبيـة فى الغـرب. وحروب إسرائيل فى الشرق الأوسط.

وقـد حذر تـشرشل من تـكرار المذابـح البشـرية، قـائلا : إن الطريق إليـها، هو نفس الطريـق الذى سبق أن حـذر منه الخطيب الرومانى المفوه «شيشرون»، وهو طريق العداوات التى لا يفصح عنها أصـحابها، وإنما يكتـمونها أو يداورنهـا. فالخطر الذى ينجم

عن مثل هذه العداوات أشد شراسة من خطر العداوات الصريحة الواضحة !

ولا شك أن من أخطر العداوات «المكتومة» تلك التى بين إسرائيل والأمة العربية والإسلامية، وهى عداوة غير تلك العداوة الصريحة بينهما، والتى تسفر عنها اعتداءات إسرائيل المستمرة والمتواصلة على الأرض العربية. فإذا كانت العداوة الصريحة، تتخذ أشكالا واطارات سياسية يتحدث عنها الساسة، وتدور حولها أفكار ومقدمات ومبادرات. فعلى العكس من ذلك نجد أن العداوة المكتومة التى لا تأخذ قسطها الواجب من المصارحة والمواجهة، هى التى تهدد حقا بأوخم العواقب، لأنها تقود إلى المذبحة البشرية الكبرى «ارماجدون»، بمعناها الأصلى الدينى الذى يتمسك به غلاة المتعصبين والمتطرفين الدينيين وما أكثرهم للأسف فى إسرائيل وهم بالذات يثيرون من وقت لآخر تعبير «ارماجدون» ويطلقونه كنبوءة عن مذبحة كبرى لكل اعداء إسرائيل.!

رئيس الأشرار

ولا بد قبل أن نمضى فى كلامنا، من أن نتحدث عن «أرماجدون» بمعناها الدينى.

الكلمة ترجمة يونانية لكلمة عبرية هى «هارمجدو» أو «جبل مجدو» وهو من جبال إسرائيل كما جاء فى التوراة. وجاء ذكره فى أكثر من سفر من أسفار التوراة. بمناسبة الحديث عن معركة يخوضها «رب إسرائيل» ضد أعدائه، فيقضى عليهم جميعا بعد

مذبحة كبرىٰ ونهائية على ذلك الجبل.

جاء ـ مثلا ـ فى الاصحاح التاسع والثلاثون من سفر «حزقيال».

قال السيد الرب، ها أنذا عليك يا جوج ـ رئيس الأشرار ـ آتى بك على جبال إسرائيل، وأضرب قوسك، ويدك اليسرى وأسقط سهامك من يدك اليمنى، فتسقط على جبال إسرائيل، أنت وكل جيوشك والشعوب الذين معك.. أبذلك مأكلا للطيور الكاسرة من كل نوع، ولوحوش الحقل، على وجه الحقل تسقط لأنى تكلمت.

ولا أدع اسمى المقدس يتنجس بعد، فتعلم الأمم أنى أنا الرب قدوس إسرائيل.

لورد اللنبى أوف مجدو

ويتردد هذا المعنى فى أسفار أخرى بالتوراة، كسفر القضاة وسفر زكريا، ويفسر هذا المعنى المتعصبون والمتطرفون من اليهود، بأن انتصار إسرائيل النهائى لن يكون بمفاوضات سلام واستقرار «بين شعوب المنطقة» !! وكما يزعم الساسة، وكما يرددون فى المبادرات السياسية المختلفة بل سيكون السلام النهائى والحاسم بالقضاء على كل جيوش وشعوب المنطقة فى مذبحة نهائية «هار مجدون» على جبال إسرائيل.

ولابد أن نواجه حقيقة مرة، وهى أن هذا المعنى قد انتقل من التوراة إلى ضمير كثير من الأوروبيين المسيحيين، خلال صراع أوروبا المرير ضد العالم العربى والإسلامى منذ الحروب الصليبية وحتى نهاية الامبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية

بعد الحرب العالمية الأولى فى بداية القرن العشرين.

وكان من الأحداث ذات الدلالة الكبيرة فى هذا المجال، أن «اللورد ادموند اللنبى» «١٨٦١ ـ ١٩٣٦»، والذى دخل بجيوش الحلفاء فلسطين عام ١٩١٨ فى مواجهة الامبراطورية العثمانية، اتخذ لنفسه لقب «لورد أوف مجدو» نسبة إلى جبل مجد أو «هارمجدو» ليضفى على انتصاراته ودخوله بيت المقدس، معنى دينيا مأخوذا من التوراة. وهو أن انتصاره كان بعون الرب الإسرائيلى ضد الجيوش العثمانية، التى هى جيوش الشر التى يقودها «جوج» كما جاء فى التوراة.

الفصل السابع

المذبحة الكبرى
طريق السلام
الإسرائيلى

السلام عن طريق المذبحة

وبينما كان الساسة ورجال الفكر يناقشون قضايا الاستقلال فى الشعوب العربية والإسلامية، كانت تتوارى خلف هذه المناقشات، مشاعر مكتومة، تضع الإسلام فى مواجهة أوروبا، وتضع الانتقام من انتصارات صلاح الدين والدعوة لضرب المنطقة العربية بالوجود الإسرائيلى، والتنبؤ بمذبحة كبرى لأهل المنطقة، كمعانى مستترة فى اللاشعور الأوروبى الغربى.

ولقد استغلت وسائل الإعلام الصهيونى معنى المذبحة الكبرى أو «ارماجدون» واستخدمته فى تصوير نهاية الصراع بين عالم الغرب الرأسمالى وامبراطورية الشر الشيوعى، باعتبار أن نهاية امبراطورية الشيوعية ستكون على يد إسرائيل كما جاءت نبوءة التوراة على جبال إسرائيل !

وبالمثل ركزت الدعاية الصهيونية دعايتها ضد كل مبادرات السلام في الشرق الأوسط والتي ترفضها إسرائيل، لأن الدعوة الحقيقية للسلام ترتبط بانتصار عسكري حاسم ونهائي لإسرائيل. ولأن السلام سيتم بعون رب اسرائيل الذي سيحارب لها ويقضي على كل جيوش وشعوب المنطقة التي تعادي إسرائيل.

ومعنى هذا، أن الضمير الإسرائيلي المستتر، لا يربط بين السلام والعدالة، أو استرداد العرب أصحاب الحقوق لأراضيهم المحتلة، ولن يكون السلام بمفاوضات سلام تدعو إلى رفع الظلم وكسب الثقة بين الأعداء فكل هذه أوهام، لأن الاستقرار النهائي الذي يقضي على كل العداوات القائمة في المنطقة، هو الذي يتم باهلاك كل المعارضين لإسرائيل.

لماذا تتهم إسرائيل ؟!

ومن هنا تستميت إسرائيل في تصوير قوات منظمة التحرير الفلسطينية على أنها قوى شر. والفلسطينيون مخربون، وياسر عرفات هو «جوج» ومثله كل من يقود الفلسطينيين لتحرير أراضيهم.

ويرفض الإسرائيليون تحت وطأة التطرف الديني، والهوس الديني المتصاعد، أي محاولة لاقناعهم بأن المجتمع الدولي بأسره في الأمم المتحدة، يرى في منظمة التحرير، مناضلين شرفاء من أجل هدف سياسي وإنساني مشروع. ويرفض الإسرائيليون أن يعترفوا بالواقع، فالسياسي الفلسطيني مهما

ارتفعت درجته الثقافية، ومهما كان مستواه الثقافى، ومهما بلغت مكانته الاجتماعية الدولية. هو فى نظر الإسرائيليين مخرب ومجرم.. بينما القتلة الذين يسفكون دماء الأبرياء من الأطفال والصبايا والكهول. هم ابطال شرفاء، إذا كانوا إسرائيليين، يهلكون النسل الشرير الذى لابد أن يفنى فى المذبحة الكبرى. والتى ستصل بالعالم ـ وحدها ـ إلى السلام الحقيقى !

ريجان لا ينكر ولا يستنكر

ولقد طرحت قضية «ارماجدون» بالكامل على الرئيس الأمريكى الأسبق ريجان، اثناء حملته الانتخابية فى معركة الرئاسة وما كان الإعلام الصهيونى يفوت هذه الفرصة، لإثارة رؤية «المذبحة الكبرى» كوسيلة اكيدة ووحيدة للوصول إلى السلام !

وكان لابد أن يقول الرئيس الأمريكى رونالد ريجان رأيه بوضوح فى هذه القضية.. فماذا قال ؟!

قال ريجان :

– إن بعض المناقشات الفلسفية التى يثيرها من لهم اهتمام بالنبوءات التى توارثناها على مر السنين، أعنى النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس، تشير إلى «أرماجدون» وقيامها وما شابه ذلك. وهناك عدد من المتفقهين فى علوم الدين خلال الحقبة الأخيرة أعلنوا عن اعتقادهم فى صحة هذه النبوءات. ولكن من يدرى، إذا كانت هذه القيامة سوف تحدث بعد ألف عام أو ستحدث غدا، ولذلك لا أضع خططى وفقا لحدوث «أرماجدون».

وهذه الاجابة التى تفضل بها الرئيس ريجان ، تحمل فى طياتها معانى مستترة فى غاية الخطورة، فإذا كان من حسن الحظ أنه لا يضع خططه على أساس أن السلام العالمى، أو فى الشرق الأوسط، سوف يتحقق بمذبحة كبرى على «جبال إسرائيل»! إلا أن اجابته تنطوى على تلك المعانى الخفية، التى تحمل فى طياتها :

أولا : الاعتراف بهذه النبوءة المتوارثة. وعدم انكارها أو تفسيرها بصورة غير تلك التى يتبناها المتطرفون الإسرائيليون.

ثانيا : الاعتراف بأنه فى الحقبة الأخيرة - أى منذ قيام إسرائيل - وهناك من يروج لصحة هذه النبوءة. فأى طلب للسلام، لن يتم إلا بمذبحة كبرى تنتصر فيها إسرائيل.

ثالثا : إن الرئيس ريجان، رجل متدين، يسعى إلى فرض التعليم الدينى فى المدارس ولو ارتبطت نظرية السياسة للأمور بنظرة دينية تتأثر بهذه النبوءات عن قيام مذبحة كبرى لتحقيق السلام، فهذا منعطف خطير، قد ينزلق إليه العالم، يؤدى إلى الكارثة الكبرى التى نعوذ بالله منها.

لقد كنت أتمنى، لو أن الرئيس ريجان انكر أو استنكر حل مشاكل العالم بنبوءة مذبحة كبرى.

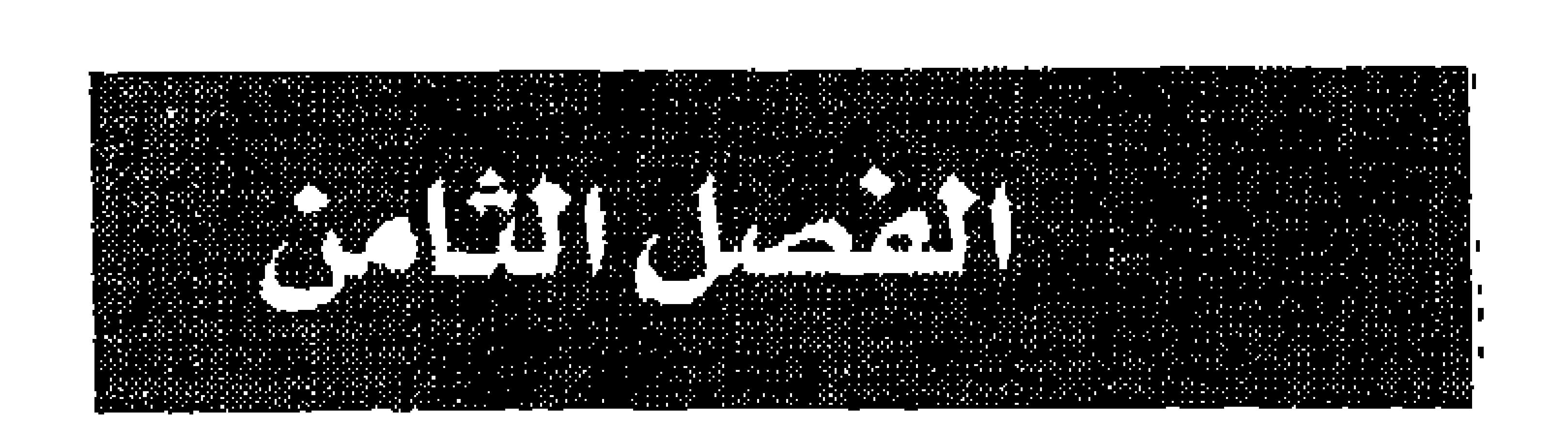
ولعل من واجب الإعلام العربى المحتم، أن ينبه ساسة الغرب، بافتراض أن نواياهم حسنة، ويدعوهم للاعتراف بأنهم مهما كان الأمر، لن يقبلوا مثل هذا التصور البشع لمذبحة كاملة شاملة كنهاية دينية أو فلسفية لمشاكل العالم، ولتحقيق السلام.

إن المعانى المكتومة، وغير الواضحة، لابد من مواجهتها، ولابد من حركة نشيطة على المستوى العربى القومى وعلى المستوى الإسلامى. لمواجهة وإدانة هذه المعاداة ضد العروبة، وهذا الشر الإسرائيلى الذى يتخذ مسوح الدين.

ولابد من المساهمة من جانبنا بتقديم التفسير الصحيح للمعانى التى وردت بأسفار التوراة. ولقد كان علماء المسلمين أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، يتصدون بقوة وبمنطق قاطع وحاسم لكل من يحرف فى الكتاب المقدس. ومن بينهم الفقيه ابن حزم الذى حارب بشدة التحريفات والتفسيرات الخاطئة للكتاب المقدس، والتى يستغلها اصحاب الأطماع والاحقاد لتحقيق مآرب سياسية دنيوية.

وإذا كان هناك أمل، فى أن يتحقق السلام فى الشرق الأوسط، من خلال مفاوضات سلام، قائمة على العدل، وعلى احترام المواثيق الدولية، وحقوق الإنسان واحترام إرادة الشعوب، فلا بد أولا من وقفة ضد دعاوى «ارماجدون».

وإذا كان الصهاينة يقيمون الدنيا ولا يقعدونها، بدعوى أن هناك من يعاديهم ويعادى الجنس السامى، فإن هؤلاء الذين يصرخون ويتباكون ضد أعداء السامية عليهم أن يواجهوا الادانة والاتهام الأكثر بشاعة وهولاً، وهو معاداة الإنسانية، وتصور أن السلام بين البشر، لن يتم إلا بمذبحة كبرى. قد تتم بعد ألف عام أو بعد غد !!



الجماعات الإسلامية





أزمة الشباب المراهق

الجماعات الدينيـة ظاهرة خطيرة أو خطر قبل أن تعرض أفكارها ومواقفها علناً على الناس، خاصة أن أحدا لا يعترض على التمسك بالأحكام والقيم الدينية، بل من الطبـيعى أن يعـتصـم الطلبة بحـبل الدين إذا واجهتهم مشاكل أو صدمات قد تزعزع الثقة فى نفوسهم.

ولكن يبدو أن هذه النظرية المتفتـحة ما زالت تجد من يستريب فيها، خاصة من تلك الأجهـزة البيروقراطية، التى تخشى كل ما له صلة بالثـقافـة والفكر والمناقـشة الحـرة.. ولكن هذا لا يمنع من مواصلة التنبيه إلى ضرورة الاعتمـاد على الثقافة والعقل والحوار المفتوح لمواجهة أخطاء من جانب الشباب، هى غالبا أخطاء تطرف وتشنج، ولمواجهـة أخطاء أكبر وأفدح من جـانب الذين يمارسون الفساد بغير اكتراث لما قـد تنتهى إليه أحوال البلاد مما نعوذ بالله الرحيم منه !

بعيدا عن السلطة

وأهم ما يسعى إليه الشباب المراهق هو الثقة، وليس صحيحاً ما يشاع من أن الشاب المراهق يسعى إلى المغامرة ويستهويه الطيش، والشاب الذى يأتى من قرية فى الشاطىء الغربى من النيل فى الصعيد، يأتى فى الحقيقة من مساكن هى أشبه بكهوف فى الجبل.. ولقد تعود الناس فى تلك المناطق أن يدبروا أمور حياتهم ولعدة أجيال، بل لعدة قرون، بعيدا عن تدخل السلطة، بل أنه العيب كل العيب، إذا ما لجأ أحدهم إلى رجال الشرطة طلبا للحماية، أو لمعاقبة أحد اعتدى عليه، إذ لابد أن يثأر الرجل لنفسه حماية لشرفه وعرضه.. ولنا أن نتصور ما يحدث لابناء هؤلاء الرجال، عندما يخرجون من كهوفهم طلبا للعلم فى المدينة الجامعية فى أسيوط أو المنيا.. إن حياة من نوع آخر تماما تفاجئهم وكل شىء من حولهم يتغير، من مظهر النساء وملابسهن، إلى نوع السلطة التى تحكم المدينة، ويفقد الشاب توازنه، ويبذل جهدا خارقا ليستعيد طمأنينة يفتقدها، ونوعا من الاستقرار كان قد تعود عليه فإذا به يتبخر من حياته.

ومثل هذا الشاب لا يجد شيئا يستريح إليه، أو كلمة يطمئن إليها غير حديث يتناوله مع شاب عند صلاة الفجر فى المسجد أو الزاوية التى يصلى فيها.. وعندما يدخل الشاب الجديد فى التنظيم الدينى يكتشف أنه دخل جماعة تحميه، وتعوضه عن فقدان سلطة الأب أو القبيلة أو العشيرة التى ينتمى إليها.. وعندما يشعر الطالب

بأنه محكوم بتعليمات وتوجيهات صادرة من قيادة، غالبا ما تكون لها هيبة السرية، يجد نفسه منتميا إلى قوة قادرة على حمايته.

الجماعات السرية

وهذا هو ما نبهت إليه فى رواية الأفيال فقد جاء فيها وصف: «لما انفجر فى البلاد كالوباء بعد كارثة ١٩٦٧، سقطت هيبة الكبار.. والقوة الرهيبة المنتصرة تحولت إلى رماد فى دقائق. وقال الأولاد لأنفسهم أفقنا من خدعة أذلتنا وأهانتنا، وانطلقوا وراء قوى سرية تصدر لهم القرارات وتطالبهم بالطاعة العمياء، وانصاعوا إليها ليتخلصوا من ذل الطاعة العلنية لمن قادوهم إلى الهزيمة.. اتجهوا إلى الجماعات السرية بحثا عن سلطة جديدة أو طمعا فى الارتباط بسلطة لم تنهزم، أو وصولا لسلطة تعوض المهانة العلنية، بأعمال سرية فيها بطش وانتقام واستعلاء».

والذين ينضمون إلى «الجماعات الدينية» تصبح لهم درجات أو مراتب، فأولا مرتبة المستجيب لمن يدعوه، ثم مرتبة اللاصق الذى أقسم على الارتباط بهم، ثم مرتبة التأنيس والحديث معه عن المضايقات التى يتعرض لها فى الحياة من أهله ومن مجتمعه وخروج الجميع على أحكام الدين، حتى ترتفع الروح المعنوية عند الشباب ويركبه الغرور، وعندئذ يدخلونه فى امتحان السيطرة كاملة عليه، فبعد أن أطمأن وأدمن الثقة بأصحابه الملاصقين له يهددونه بالطرد من مجتمعهم، فيشعر بالخوف والضياع ويعلن عن استعداده للقيام بأى شىء من أجل البقاء فى نفس الحظيرة.. وعندئذ يتحول إلى مجرد أداة سلمت عقلها وإرادتها لمن يقودها

إلى حيث يشاء. وقد يخلع الشاب الماضى من حياته كما يخلع الضرس الذى نخره السوس، وقد خضع لعملية جبارة من عمليات غسيل المخ، وأصبح واحدا ممن نراهم اليوم يوزعون منشورات تطالب بالغاء الديمقراطية والحكم بأوامر «خليفة» لا ندرى عنه شيئا يريد أن يحكم المسلمين باسم الإسلام !

الانقسام فى مذاهب الدين

ولا أريد المبالغة، ولكنى لا أريد فى الوقت نفسه التهوين من الأمر.. وهناك من يقول : إن خطر مثل هذه الجماعات ليس كبيرا ولا يستحق أن نصوره فى حجم أكبر مما يستحقه.. فمثل هذا التحرك باسم الدين عرفته مصر فى كل العصور والعهود، كظاهرة تعلو وتهبط، ولكنها لا تزيد على حجمها التقليدى.

ولقد كتب زكى مبارك منذ نصف قرن بالكمال والتمام، فى كتابه عن «اللغة والدين والتقاليد فى حياة الاستقلال» يروى عما تعانيه مصر فى ذلك الوقت باسم الدين، فلم يقدم لنا شيئا يختلف عما نواجهه اليوم ـ قال زكى مبارك :

«إن فى الحاضر ـ ١٩٣٦ ـ عبرة، فقد جدت فى مصر نفسها فتن دينية يعرفها من يخالط السواد فى الأحياء الشعبية، ويكفى أن يعرف القارىء أن فى القاهرة مساجد يدخلها الناس، ويطرد منها ناس، وأن فى بعض القرى عائلات تتقاطع أبشع التقاطع بفضل الانقسام فى مذاهب الدين، ولست بهذا أوجب أن يقفل باب الاجتهاد، وإنما أوصى بأن تحصر الأبحاث الدينية على البيئات العلمية وأنصح بأن يحرس العامة حراسة شديدة من المشاركة،

فى الخلافات المذهبية والدينية.: ومن البلاء أن تتكرر المأساة التى وقعت فى شبين الكوم منذ عام، والتى تقع أشباهها فى كل يوم، وإن لم تدون أخبارها فى محاضر البوليس».

والآن بعد نصف قرن، لا يذكر أحد ما الذى حدث فى شبين الكوم، وما هى الأحداث التى تكررت والتى لا تدون فى محاضر البوليس، ولكننا نعرف أن أحداثا أخرى مشابهة تقع فى مصر اليوم، وبعضها لا تذكره محاضر الشرطة، ولكن يبقى أن الظاهرة ليست جديدة، لا تدعو لغرابة أو دهشة أو كأن الذى يحدث أعجوبة لم نسمع عنها من قبل.

القوة مع مَن ؟

ويضيف آخرون، من أنصار اعتبار أن الأمر لا يستدعى التهويل والمبالغة: إن خطورة الجماعات الإسلامية ليست فى توجهها الدينى، ولكن فى أن ينقلب هذا التوجه إلى نشاط سياسى انقلابى، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلا فى نظرهم لأن القوة فى نهاية الأمر هى صاحبة الكلمة الحاسمة وهى فى يد القوات المسلحة، وليس للجماعات الدينية سيطرة عليها.

الجماعات والفرق
صاحبة نشاط سياسى، ممم
بشيوخها ومريديها.

وجماعات الطرق الصوفية لها أصول قديمة فى مصر، وأغلبها قائم على التكافل الاجتماعى بين أعضائها.

وفى مصر أكثر من ١٠٠ جمعية تضم المسلمين لأغراض

دينية وثقافية واجتماعية مختلفة، وكلها جمعيات ليس لها نشاط سياسى مباشر، فهى تتجه إلى توعية وتثقيف الفرد كمواطن مسلم متدين صالح لأداء دوره فى المجتمع كنواة للتقوى والطهارة، أما الذين يدخلون فى النشاط السياسى فيتحركون من خلال تنظيمات خاصة وسرية لأن القانون لا يسمح لهم حتى الآن بإقامة أحزاب دينية.

والنشاط السياسى شديد الوضوح لهذه الجماعات ذات التوجه السياسى. ولقد قال لى أستاذ جامعى فاضل شديد الورع، يطلق لحيته ويحرص تمام الحرص على شعائر دينه: إنه غير مقبول من الجماعات الإسلامية، وليس السبب ـ بطبيعة الحال ـ أنه مسلم، وإنما السبب أنه لا يدخل فى تنظيم ولا يلتزم بأوامر قيادة توجهه وتقول له ما الذى يفعله وما الذى لا يفعله فى كل شىء وليس فى الدين فقط.

وهناك من رفعوا شعارات الجماعات الإسلامية كأعضاء استطاعوا دخول المؤسسات السياسية، كأعضاء فى مجلس الشعب ـ مثلا ـ أو من خلال نشاط أعضائها فى تنظيمات أو حلقات خاصة سرية، تعمل خارج نطاق المؤسسات السياسية المعترف بها.

ولكن كيف تطور الأمر على هذا النحو ؟

إن نقطة البداية لهذا التطور، كانت فى خطة الرئيس الراحل أنور السادات لتدعيم مركزه السياسى على المستوى المصرى أو المحلى، أو على المستوى العربى، فى وجه مقارنة تحاصره

وتزعجه بين شخصيته وشخصية عبدالناصر، وبين قدرات «الزعيم» الراحل و «الرئيس» الجديد.

فمن هنا كان لقاء السادات، وتحالفه مع الذين يرفعون شعارات الدين فى عمل سياسى وإعلامى يواجه التيارات السياسية اليسارية والناصرية التى ما زالت تؤمن بسياسات عبدالناصر.

كان عبدالناصر يعلن عن صداقة الجمهورية العربية المتحدة للاتحاد السوفيتى باعتبار أنها صداقة استراتيجية أى واحدة من ثوابت السياسة المصرية العربية.

فكان من الضرورى لينسف السادات هذه الاستراتيجية من قواعدها، أن يشجع الذين يعلنون أمام الجماهير، أن الاتحاد السوفيتى يدعو إلى الشيوعية والإلحاد، ويترك هؤلاء الدعاة يمارسون دعوتهم بينما يطلق هو تصريحات عن صداقته مع السوفييت، حتى يحين الوقت المناسب لتقويض هذه الدعامة الاستراتيجية. وما كان هناك رأى يستطيع أن يؤثر فى الجماهير وأن يدفعها إلى نسيان السد العالى وشحنات القمح السوفيتى والصواريخ التى حمت مصر فى حرب الاستنزاف، غير عمل سياسى مكثف يعتمد على الدين، وإثارة مخاوف حقيقية عند المصريين من الكفر والإلحاد.

وكان عبدالناصر يتزعم الدعوة إلى القومية العربية، ومهما فعل السادات فى هذا المجال، فسيظل فى نظر الجماهير العربية، تابعا لخطوات رئيسه عبدالناصر .. لذلك كان من المحتم أن

يشجع السادات الوحدة الإسلامية وكأنها أقوى وأهم من الوحدة العربية. وهذا موضوع خطير، سوف نتعرض له فى مناسبة أخرى، لأنه يستحق أن نتناقشه منفردا. ويكفى أن نقول الآن أن السادات رأى أن يظهر بصورة «المؤمن» قبل صورة «القومى» وكان هذا خيارا سياسيا بالدرجة الأولى، ليكون له طابعه المميز، عن سلفه عبدالناصر.

وكان من ثمار تحالف السادات مع الذين ارتضوا رفع شعارات الدين من منابر السلطة، النص فى دستور عام ١٩٧١ على أن الشريعة الإسلامية هى «المصدر الرئيسى» وليست «مصدرا رئيسيا» من مصادر التشريع. وقد استرضت الحكومة أعوانها فى هذا الاتجاه بقوانين تكسب بها الرأى العام، مثل قوانين تحديد أماكن وأوقات تعاطى المشروبات الكحولية فى أماكن سياحية مخصصة لهذا الغرض، ومنع هذه المشروبات من جميع الأندية، وسط حملة إعلامية تزف للمواطنين البشرى بأن عهد الطهارة والتدين والصفاء الروحى قد أقبل، وعهد الإلحاد والتعذيب والقهر قد أدبر. هذا وتستمر حتى اليوم الدعوة إلى إلغاء بيع الخمور أو صناعتها ورفض المنطق الذى يقول إن مثل هذا المنع يضر بالدخل السياحى.

الدين الرسمى والدين الشعبى !

وهكذا دخل الدين فى السياسة من أوسع أبوابها الرسمية، وأصبح تيارا دينيا فوقيا، يدعو إليه الحاكم، وينشر شعاراته، ويحشد له فى المناصب العليا، علماء الدين، ويجند له فى

الصحف أقلاماً تبارك هذا المناخ الدينى وتبحث لها عن جماهير من طلبة الجامعات، لتضرب اتحادات الطلبة الذى كان يسيطر عليها الناصريون أو الشيوعيون، وهو هدف استطاع السادات أن يحققه بنجاح، عندما تسلح الطلبة بالمطاوى ومزقوا صحف الحائط، وهددوا كل من تسول له نفسه معارضة السادات من الطلبة، لأنه يصبح فى نظرهم كافرا ملحدا شيوعيا عدوا للدين.

وكان من الطبيعى أن يكون لهذا التحرك السياسى الرسمى، أو الفوقى الصادر من السلطة الساداتية، والرئاسة المؤمنة، تحرك آخر يقابله، ومضاد له، سياسيا، وعلى المستوى الشعبى الجماهيرى.

فما الذى تتوقعه غير هذا فى عالم السياسة، والسعى إلى تدعيم السلطة حتى لو كان سلاح السلطة هو رفع شعارات الدين.

الإخوان والسادات

وكان من الطبيعى أيضا أن تعاود جماعة الإخوان المسلمين نشاطها على سطح الحياة السياسية والاجتماعية، وقد سمح لها السادات بإعادة اصدار صحيفتها «الدعوة» برئاسة تحرير المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ عمر التلمسانى. وانتشرت المجلة وقفز توزيعها إلى أكثر من ١٠٠ ألف نسخة، وكانت لها مواقف سياسية واضحة بالنسبة للحكم، ومطالبتها بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، مكان القوانين الوضعية، وإن حرصت الجريدة - لأسباب سياسية مفهومة - على عدم مهاجمة السادات شخصيا، فهى لم تحصل بعد على وضع قانونى يسمح لها

بمواصلة الصدور، وتعتمد على موافقة السادات الشخصية، وذلك التحالف السياسى - وبالقطع ليس تحالفا دينيا - الذى يتيح للسادات أن يعتمد على الإخوان كقوة جماهيرية ضد الشيوعية، وضد الناصرية التى بينها وبين الإخوان ما صنع الحداد.

ولكن هذا التحالف السياسى، لم يمنع ظهور جماعات إسلامية أخرى تتحرك باسم الدين رافضة التحالف مع السادات.. وهذا أمر طبيعى، وكان لابد من توقعه.

صراع سياسى

ومن أهم هذه الجماعات، جماعة شباب محمد، وجماعة التكفير والهجرة، وكان أغلب نشاط هذه الجماعات يدور سرا، ولم يتكشف منه إلا ما ظهر من خلال قضايا، مثل قضية الفنية العسكرية، التى حاول فيها صالح سرية وزملاؤه الاستيلاء على السلاح من المدرسة العسكرية، ثم الهجوم على السادات ورجاله بمبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وسط القاهرة بجوار كوبرى قصر النيل. ولقد قدر صالح سرية أن احتمالات نجاح المحاولة لا تزيد على ٣٠٪، ولكن زملاءه صوتوا لصالح القيام بالمحاولة، متأثرين بصيحة أحدهم أن يقوموا بغضبة لله ضد الرئيس المؤمن.

فكان هذا مثالا على صراع نشب بين نشاط سياسى باسم الدين على المستوى الرسمى، يصارع نشاطا سياسيا باسم الدين على المستوى غير الرسمى، بكل ما يحمله من مدلولات غير دينية، كصراع طبقى على السلطة وصراع ضد السيطرة

البيروقراطيـة وصراع ضد التهاون مع الامبريالية والاسـتعمار.. وكل هذا باسم الدين.

أما جمـاعة شكرى مصطفى ـ التكفيـر والهجرة ـ فقـد كشفت عنها قضية اختطاف الشيخ الذهبى وزير الأوقاف السابق كرهينة مقابل الإفراج عن المحبوسين من أعضـاء الجماعة، ثم قتلوا الشيخ الذهبى عندما لم تستجب الحكومة لمطالبهم.

وكلا الجماعـتين تعلنان أنهما اسلاميتـان، ولكن زعامة صالح سـرية، ما كـانت لتـتـفق مع زعـامة شكرى مـصطفى. ولو قـدر لاحدهما النجاح لكان من المـحتم أن يصطدم بالآخر وأن يصرعه، لأن الأمـر فى التـحليل النهـائى صراع لـلحصـول على القـوة أو السلطة لتغـيير أوضاع سـياسية واقـتصادية «فاسـدة أو ظالمة» بالاعتـماد على أحكام الدين أى بالاعـتماد على الإسـلام، ولا أحد بالطبع يمـتحن الإسـلام بين المـسلميـن، ولكن فى الوقت نفسـه لا أحد يجرؤ على إلقاء السؤال البديهى.

رضـينا بالإسـلام دينـا
ولكن المشكلة فى المسلمين

الإسلام على العين والرأس، أما المسـلمون، فالأمر يختلف فى النظر إليهم، وفى قبول أحكامهم أو الخضـوع لحكمـهم.

ويقـول لنا الشـهرسـتـانى: إن خلافـات كـثيـرة وقـعت بين المسلمين حول الإسلام، وكان مصدرها أسباب كثيرة على رأسها النفـاق الذى هو شر مسـتطير، ولقـد ظهر خطر الخـلاف وخطر المنافـقـين باسم الإسـلام حتى فى أيـام الرسول عليـه الصـلاة والسلام.

أولاً عبدالناصر

وهناك مظهر للإنسان، وهناك مخبر، والظاهر قد يختلف تماما عن الباطن بل قد يناقضه.

ثم هناك بعد ذلك، أمر لا يتنبه إليه أحد، فهؤلاء الشباب الذين ينخرطون فى الجماعات الدينية اليوم، ولدوا قبيل أو بعد عام الهزيمة ١٩٦٧، وهم أولاد عهد عبدالناصر، وقد دخلوا المدارس وتخرجوا فى الجامعات بالمجان. وشاب مثل شكرى مصطفى خرج من مغارات الصعيد، وما كانت الفرصة تتاح له لأن يتعلم فى الجامعة لولا ثورة قادها عبدالناصر.

هؤلاء الشباب قالت لهم الثورة بلسان عبدالناصر «ارفع رأسك يا أخى» فتطلعوا إلى حياة أفضل، وكانوا فى مجتمعات فقيرة مغلقة، فأخرجهم الزعيم من جحورهم وحرك الطموح فى نفوسهم، فلما انتهى الحلم إلى سراب بسبب انتصارات إسرائيل وكارثة فلسطين، صمم هذا الشباب على المحافظة على الطموح ورفض أن يتخلى عن الأمل، لقد عانى من الفقر، وعرف أسباب الذل والمهانة الطبقية، وواجهها - على الأقل - الآباء والأعمام والأجداد، وهو الذى اقتحم وراء عبدالناصر أبواب الثورة. فلن يوصد أحد الأبواب فى وجهه، لا باسم هزيمة ٦٧، ولا باسم انفتاح للأغنياء والمستغلين، ولا باسم معاهدة كامب ديفيد.

وإذا كانت شعارات الثورة تساقطت، فلديه شعارات تراثه الدينى تسعفه، فتعلو رايات الدين بمفهوم ثورى سياسى، يفسر

لنا اختلاقه بل تناقضه أحيانا مع الإخوان المسلمين الذين حاربوا عبدالناصر وحاربهم.

إنهم يثيرون قضايا الفساد، والظلم الاجتماعى ويطالبون بالتطهير والطهارة، ولا يستخدمون الشعارات أو المصطلحات الاشتراكية. يكفى أن يتحدثوا لادانة المفسدين فى الأرض، أى المستغلين، كما كان طه حسين يتحدث عن «المعذبون فى الأرض» أى ضحايا الاستغلال.

وهم يثيرون رغم كل تعاليمهم الدينية، قضية شرعية السلطة، بينما تحاول السلطة أن تتجاهل هذا الأمر، وتدفن رأسها كالنعام حتى لا تراه.

ولكن السكوت على هذا خطأ فادح ومروع، لأن من واجبنا أن نناقش الأمر بوضوح، حتى لا نتورط فى مآس ومعاص باسم الدين والدين منها براء، بل هى من صميم الأزمة السياسية التى تتفاقم إذا تركنا الشباب بلا قيادة حكيمة عاقلة توجهه.

وقبل أن نلوم الشباب، أو نحاصره باجراءات أمن وضبط وربط، كان لابد أن نلوم الكبار أنفسهم، وأن يدركوا أن الخطأ الفادح جاء من العمل السياسى فى الشارع المصرى. ومن القيادات التى تلاعبت بالشباب وبشعارات الدين لأغراض سياسية، ثم تركت هؤلاء الأولاد بلا قيادة، خاصة الحزب الوطنى الحاكم، الذى يتفرج الآن على صفقات واتفاقات بين جماعات الشباب وأحزاب المعارضة، فيما يشبه البورصة السياسية ـ ولا أقول الدينية ـ ولا أحد يعلم ما الذى يباع وما الذى يشترى

فى هذه الصفقات، أو سمها - إذا شئت - التحالفات السياسية.

ولقد كانت تصرفات الحزب الوطنى - الحاكم - مثالا لعدم الفهم السياسى، عندما ساهمت إعلاميا وثقافيا فى قطع كل صلة بينها وبين عهد عبدالناصر والمكاسب الشعبية التى حققها لجماهير الشعب، ثم تراجعت عن عهد السادات أو تأرجحت بين السكوت على أخطائه أو انتقاده أو تأييده، فانقطعت صلتها مرة أخرى بالشباب الذى توقع حركة جديدة فى العهد الجديد للقضاء على الفساد وتطهير الإدارة، فوجد أن الحزب الوطنى يتلكأ أو يعرقل مسار التطهير، حتى فقد الشباب اهتمامه بالعمل السياسى الرسمى، ولم يجد فيه ما يرضى طموحه أو حتى احترامه لنفسه، ومن هنا ظهرت فى الأفق السياسى سحابات قاتمة تناقش شرعية النظام وتبحث عن أى كلام تجده فى كتب الدين تبرر لها مواقفها المتمردة أو المعارضة..!

الشرعية .. ومأساة الخلاف
الذين خلطوا الدين بأهواء السياسة
فى صراع على السلطة

تستمد السلطة شرعيتها من ولاء الناس لها عن اقتناع بأن السلطة القائمة بينهم تحكم بالعدل وبما يرضى الله عز وجل. وأنها لا تستمد شرعيتها بقوة السلاح، تضرب به أعناق الناس ليخضعوا صاغرين، بل هى تستخدم القوة والغلبة الضرورية لأية سلطة لاقامة العدل.

وهذا المبدأ، أى الاقتناع بأن السلطة صالحة للحكم، واطمئنان

الناس له هو أساس الشرعيــة، ينطبق على جميع أنظمة الحكم بلا استثناء. بمعنى أنك لا تسـتطيع أن تقول عن حكم إنه شرعى رغم عدم اقتناع الناس به، ولا استثناء فى هذا حتى لو زعم الحاكم أنه يطبق شريعة الله، وأنه يحكم باسمهـا.. فإذا كان لا يجوز مناقشة شرع الله وأحكامه، إلا أن الإنسان الذى يطبق الشريعة أو يفسرها ليس معصوما من الخطأ أو ما هو أكثر من الخطأ.

أمــر شــائع

والاختـلاف حول تفسـير النص القـرآنى، وتفسيـر الأحاديث الشريفة، ورؤية أحداث التاريخ الإسلامى من زوايا ووجهات نظر مختلفة أو متعارضة، أمر شائع فى تاريخ الإسلام مثلما هو شائع فى كل مــا يمس شئـون البشــر، وسواء كـان ذلك باسم الدين أو باسم مذهب سياسى علمانى.

وسـتظل شرعـية الـسلطة ـ أية سلطة ـ قـائمة على الاقـتناع معـتمـدة على العـقل والمنطق وكيف يهـتدى بهـما الإنســان إلى ما يرى فيه مصلحته سواء بالنسبة للدنيا أو الآخرة.

ســؤال هــولاكو

ولا شىء يقنع الناس بالولاء للسلطة، مثل إدراكهم أنها تتعامل معهم بميزان العدل.. وهذا هو ما شعر به المسلمون عندما انهارت الخلافة العباسية بعد اجتياح التتار بقيادة هولاكو بغداد.

ولقد كتب ابن طباطبـا بعد سقوط بغداد بخمـسين عاما يروى قصــة، قد لا تكون حقـيقيــة ولكنها بكل تأكـيد كانت شــائعة بين المـسلمين فى تلك الأيام العـصيـبة التــى شهـدوا فيـها سـقوط

الخلافات الإسلامية تحت سنابك خيل غزاة كفار من التتار. والقصة لها مغزى عميق، وتصور لنا ما استقر فى ضمير المسلمين حول أسباب سقوط الخلافة.

يقول طباطبا فى كتابه «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» إن هولاكو بعد أن دخل بغداد واقتحم قصر الخلافة استدعى علماء بغداد فلما اجتمعوا أمامه ألقى عليهم سؤالا :

- «هل تفضلون حاكما عادلا كافرا، أم حاكما ظالما مسلما» ؟

ووجم العلماء، ولزموا الصمت، فهددهم هولاكو بالقتل، إذا لم يسمع اجابتهم، وعندئذ تقدم واحد منهم وأفتى بأن الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم.

والخلاصة، إن الذى أسقط الخلافة هو ممارسة الظلم وعدم ارتفاع الخليفة إلى مستوى مسئولياته بأن يكون الحكم بين الناس بالعدل.

والقصة لا تدين الإسلام، ولكنها تدين المسلمين، لأن الإسلام والعدل لا يفترقان وكلمة مسلم تتنافر مع كلمة ظالم.. وهذا هو ما أثبته الإسلام كعقيدة، إذا لم يجد الغزاة من التتار عقيدة أفضل منه، وتحولت سيوفهم عن محاربة الإسلام إلى الدفاع عنه. الأزمة مرة أخرى، ليست فى الإسلام، وليست فى الحفاظ على كتاب الله وآياته فالله عز وجل هو خير حافظ للإسلام وللقرآن. إنما الازمة فى البشر، فى النفوس التى يصيبها الضعف والوهن.. أو يصيبها التهور والاندفاع والشطط !

وهناك بين المسلمين من يقرأ آيات الكتاب فلا يرى فيها إلا

الجبر وأن الله يعـز من يشاء ويذل من يشاء، كمـا يشاء وهذا كله صحـيح. وهناك بين المسلمـين من يقرأ أن الله لا يغـير مـا بقوم حتى يغيـروا مـا بأنفسهم، وهذا أيضـا صـحيـح. ولكن عجـز الكثيـرون عن الجمع بين المـعنيين، فـاندفع البعض وراء مـعانى الجبر، فلا يريد أن يفعل شيئا، سوى المحافظة على ما هو موجود وقائم. ولقد كان الأمويون يمـيلون إلى تشجيع هذا الاتجاه، حتى يتـخلصوا من كل مـعارضـة تثـور حول شـرعيـة حكمهم، بعـد الصراع الذى نشب بين أبـى سفيان وعلـى بن أبى طالب وانتهى إلى الحرب ومـعركـة صفين ومـأساة التحكيم ورفـع القرآن على أسنة الرماح، ثم مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه.

أين الحـــق ؟

أما مدرســة المدينة التى عرفت جعفر الصـادق، وعرفت الإمام مالك، فكانت تمـيل إلى ممارسة الاجـتهاد ولا ترضى بتفـسيرات جامدة، وتقبل النظرة المتجددة لما تتصدى له من فتاوى وأحكام.

وجـاء فى الملل والنحل لأبى الـفتح مـحـمـد بن عـبـدالكريم الشهرستـانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ أن المسلمين افـترقوا خلال خمسة قرون على ثلاثة وسبعين فرقة.. وأن هذا أمر له خطره لأن الحق لابد أن يكون مع فـرقـة واحدة، أمـا باقى الفـرق فكلها قـد تورطت فى الخطأ.. ومن المـحـال أن تحكم على المـتخـاصمـين المتـضادين بأنهـما مـحقان صـادقان، فـالحق يجب أن يكون مع جانب واحد.. فإذا صدق هذا كذب ذاك.

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضا : «لا تزال طائفة من

أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة».

وقال أيضا : «لا تجتمع أمتى على ضلالة».

قائمة الخلافات

والذى نعلمه، ولا ينكره أحد، أن الخلافات قامت بين المسلمين، وشملت كل شيء بلا أدنى مبالغة.

وإليكم بعض نماذج من هذه الخلافات :

- خلاف حول معنى القدرة.. والجبر والاختيار
- خلاف حول معنى العدل..
- خلاف حول معنى الإيمان والتوبة.
- خلاف حول ما يصح اتهامه بالكفر، أو ضرورة ارجاء هذا الحكم إلى يوم الحساب.
- خلاف حول ما هو صلاح وفلاح، وما هو حسن وما هو قبيح.

الإمامة والرياسة

ويستمر الخلاف لا يترك قضية لا يصل إليها، إلى أن نصل إلى خلاف رئيسى، حول شروط الإمامة أو الرياسة.

- اختلفوا حول الشروط، فهناك من قال إنه لابد من نص يحدد الإمام أو الخليفة. وهناك من يرى أن الشرط المطلوب هو اجماع المسلمين.
- واختلف الذين قالوا إن الرياسة تكون بالاتفاق واختلفوا حول من له الحق فى عقد الاتفاق.. وقال البعض الأمة، وقال

آخرون ما هي الأمـة؟ إن هي إلا جماعة لها اعـتبارها.. وهناك من قال إن الإمامة حق لمن يصلح لها.. واختلفوا على من يصلح لها.

– واخـتلفـوا على شروط أخـرى، قـال البـعض لابد أن تكون الرياسة لقرشي لأن الرسول عليه الصـلاة والسلام كان قرشيا.. وهنا اعتـرض آخرون وقالوا لمـاذا يكون قرشيـا، ولماذا لا يكون هاشميا؟

وأما من قال يكون قرشيا، فكان يريد فى حـقيقة الأمر مساندة معاوية بن أبى سفيان وأولاده من بعده، ضد على بن أبى طالب.

– واخـتلفوا حـول من يرث الإمامـة.. واختلفـوا حول تحـديد الأسـمـاء، ولمن تكون الطـاعة، حـتـى انقلب الأمـر إلى فـوضى، وأصبح تفـسيـر أحكام الشرع ونصوص القـرآن الكريم خاضـعا لأهواء ومصالح وأطمـاع، هى التى تزعم من له حق الطاعة وحده، ومن له حق تفسـير النصوص وكان لا يحسم هـذه الخلافات فى أغلب الأحوال إلا القتل وسفك الدماء.

باسـم الـــدين

ولن استمر فى سرد الخلافـات، فهى لن تنتهى وما ذكرتها إلا لانتهى إلى أن هذا الخلاف، يتـيح الفرصة اليوم لمن يقرأ فـيبحث عن شرط أو حجة أو تفسير لشـروط الإمامة يتفق مع أطماعه، ثم يعلن فى جماعة أنه أميـر لها، أو أنه الخليفة المنتظر، أو أنه الإمام صاحب الكلمة العليـا فى شئون المسلمين يتلقون العلم والتـفسير منه وحده.. ثم يجد من يصدقه أو يـسير وراءه، لا لأنه يقتنع بما يسمعه وإنما بحثا عن تغـيير ما هو قائم، أو رفضا لاوضـاع يريد لها أن تتغير بأية وسيلة.

وهذا يعنى، أننا لا نواجه ـ مرة أخرى ـ دعوة دينية، بل نحن نواجه مباشرة، تحركات سياسية تأخذ قناعا دينيا مشكوك فى سلامته الدينية، وواضح فى استغلاله السلطة باسم الدين للتخويف.. .

إن السلطة كما يقول ابن خلدون، وكما تقول جميع تجارب التاريخ، تعتمد على الغلبة أى القوة، وعلى الاقناع بأنها عادلة ولمصلحة الجميع مما يضمن لها الولاء. وسلطة بلا قوة ولا اقتناع لن تقوم ولن تكتسب شرعية.

السلطة الدنيوية والإنسان

والدين لا يصنع السلطة الدنيوية، بل قد يتولى هذه السلطة من يقول للناس قول عمر بن الخطاب «أيها الناس من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه» فيقوم من يصيح قائلا له : «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا». إن السلطة الدنيوية، تبدأ بالإنسان، بكل احتمالات ضعفه واعوجاجه. والسلطة تقوم على الغلبة، وهى تقوم أيضا على قبول الناس لها وثقتهم فيها.. ثم هى بعد ذلك تستطيع أن ترد الناس إلى الشريعة.. أما أن يحدث العكس، فيقوم بين الناس من يزعم بأنه صاحب الحق فى الرياسة باسم الدين، وكأنه صاحب تفويض إلهى، ثم يفرض على الناس الأحكام كما يزعم أنه يراها شرعية، ومن يعارضه يطيح السيف برقبته، ولا مجال للمناقشة ولا الاقناع والاقتناع.. فهذا ما نعوذ بالله منه وما لا نقبله حفاظا على الدين وحماية له.

اختلط الأمر !

إن الأمور السياسية، إذا اختلطت بالدين، ونوازع السلطة إذا امتزجت بالتقوى، اختلط الأمر، ولقد كان واصل بن عطاء يسألونه فى واقعة الجمل أو فى أصحاب معركة صفين، وهو رجل العلم المتبحر فى أمور الدين، ومؤسس المعتزلة. فكان يرفض أن يتورط فى إجابة سياسية.

كانوا يسألونه : ما رأيك ؟

فيهز رأسه آسفا حزينا ويجيب : أحدهما مخطىء.

فيسألونه : ومن هو المخطىء ؟

فيسكت ويمتنع عن الإجابة.

حتى عندما سألوه فى مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه.. سألوه :

- ما رأيك فى الذين قتلوه.. والذين خذلوه؟

قال : أحد الفريقين فاسق لا محالة.

أما من هو هذا الفريق.. فقد رفض أن يحدده لأنه رفض أن يزج بالدين فى قضية سياسية وصراع دموى على السلطة.. وفرق هائل بين أن تستخدم جماعة الدين للوصول إلى السلطة وبين أن يقبل المجتمع نظاما سياسيا ويقتنع الناس به، لأنه النظام الذى يطبق أحكام الشرع ويحكم بين الناس بالعدل.. إن المدخل للسلطة، هو العدل.

أما السلطة الشرعية، كما نراها فى أحسن صورها اليوم فهى

تلك التى تتجاوز كل الخلافات من خلال تجربة واعية، وليست تلك السلطة التى تستمد شرعيتها من القهر والبطش باسم الدين، ثم هى تندفع إلى إرهاب من لا يخضع لسياساتها وأهوائها، فتعمل على الضغط عليه بوسائل لا صلة لها بالدين.

ولذلك لابد أن نقول كلمة عن أولئك الذين يتعاملون اليوم بالجريمة، وبالتدمير وإشعال الحرائق، وبارتكاب كل ألوان الشر، ثم يبررون تصرفاتهم، بأنهم يدافعون عن الدين، ويريدون فرض شريعة الله.. إنها أزمة حقيقية.. الدين منها برىء، لأنها أزمة نفوس ضعيفة، وأزمة أخلاق.

شعارات دينية وسياسات لا أخلاقية

قبل الحديث عن السياسة والدين، علينا أن نتحدث أولا عن الأخلاق! لأن هناك من يزعم أن أى حديث تدخل فيه السياسة، هو حديث لا صلة له بالأخلاق ! وإذا قبلنا هذا الرأى، فلن نقبل بالتالى بحث العلاقة بين السياسة والدين. لأنه لا علاقة بأية صورة من الصور، بين الدين وأية سياسة لا أخلاقية.

ومع ذلك نجد بيننا من يتعامل فى السياسة على أن الواقع شىء والنظريات شىء آخر، فالواقع يتطلب مناورات وصفقات واتفاقات.. والسياسة فى الواقع أقرب إلى الناس ومعاملاتهم فى الشارع منها إلى كتب الفقهاء ومحاضرات أساتذة العلوم السياسية. وما زال «ميكيافيللى» بتعاليمه اللاأخلاقية، ومبدئه المشهور أن الغاية تبرر الوسيلة، هو القدوة والنموذج الذى يحتذيه كثير من رجال السياسة. وأنت تسمع بين وقت وآخر

سياسيا كبيرا ـ على اختلاف المذهب أو الحزب الذى ينتمى له ـ يهمس لك، أن السذج وحدهم هم الذين يصدقون الشعارات التى يذيعها الساسة اثناء خطبهم من فوق المنابر وأمام الميكروفونات. فقد يمدح هذا السياسى الاتحاد السوفيتى فى خطاب علنى، وهو يتفق سرا مع الولايات المتحدة اتفاقا ضد مصلحة السوفيت. وقد يثور هذا الزعيم أو ذاك أمام الجماهير ضد دولة عظمى وفى الوقت نفسه يرسل مبعوثين يتفاوضون سرا لعقد هدنة أو صلح.

والدين لا يسمح بالوسائل الشريرة والخبيثة كمبرر لتحقيق أهداف شريفة.. لأن الشر لا يصنع الخير، والحرب الظالمة العدوانية، لا تحقق انتصارا عظيما عادلا. والدين وسيلته وغايته كلتاهما خير وعدل.

هناك علماء طيبون أفاضل، يقولون لنا: لا تزعجوا انفسكم بعقد مقارنات بين التصرفات السياسية والتصرفات الأخلاقية التى تقضى بها تعاليم الدين، لأن الذى يحكم السياسة قوانين أشبه بقوانين الطبيعة، وهى ليست قوانين طيبة أو خبيثة، فلا شر ولا خير ولا حكم أخلاقى، أمام قوانين صراع طبقات، أو تحولات حضارية تفرضها أحداث التاريخ. وإذا كانت السياسة هى فن استخدام الممكن واستغلال القوة المتاحة لك، فأنت لا تستطيع أن تخترع قوة غير قوتك، أو ممكنا غير الممكن الذى بين يديك. ولن ينهزم أحد أو يجوع ليرضى الأخلاق الكريمة. ولن يتنازل حاكم عن سلطاته باسم العدل، ولن تتخلى طبقة عن سيطرتها لأن التقوى دفعتها إلى ذلك. ولن يترك قوى سلاحه الفتاك خضوعا لتعاليم الدين ويلقى بسلاحه وهو مطمئن إلى سلامة العواقب. كل

هذه أوهام شعراء، قد يستخدمها الساسة فى خطاباتهم لتخدير الشعوب، وتعطيل نزعات العنف بينها. ولكن تبقى الحقيقة، أن الأخلاق وتعاليم الدين شىء، وقوانين السياسة شىء آخر.

وأحيانا تسمع سياسيا يقول لك إن الدعوة إلى الأخلاق هى دعوة لا أخلاقية ودعوة كاذبة، لأنها لا تعتمد على سياسات سليمة، وتضلل الناس عن القضايا الحقيقية التى يجب أن يوجهوا جهودهم إليها.

ومع انتشار هذه الأفكار، ساد بين كثيرين من المشتغلين بالسياسة نوع من قبول التصرفات اللاأخلاقية، التى قد تهبط إلى مستوى رخيص وردىء، وتقبل ألوانا من النفاق والرياء والمجاملة، وألوانا أخرى من الجهل وسوء الفهم والبلادة فى التصرف.

وفى الحقيقة لو تصورنا أن حياة المجتمعات تقوم على مثل هذه التصرفات، لانتهت هذه المجتمعات - علميا وموضوعيا - إلى حالة من الانهيار الكامل الشامل لكل شىء، للرجال وما يملكونه من قدرات أو أموال أو سلطات.

الغرور والاستعلاء

وأخشى أن أقول إن مظاهر هذا الانهيار قد ظهرت بالفعل، وتنذر بوباء ينتشر سريعا فى أماكن كثيرة ومتفرقة من العالم، ترى فيها حكومات ورياسات تتآمر وتتعامل مع الإرهابيين، وقد تجاهلت كل ما تدعو إليه الأخلاق. بينما الأخلاق مطلوبة، بل ضرورية، على مستوى الحكام، قبل أن تكون على مستوى

المحكومين، فالحاكم الذى يوافق على التآمر أو على تخريب الدول المجاورة له، إنما يسارع - فى المقام الأول - إلى تخريب نفسه وبلده التى يتصدى فيها للحكم كقائد وقدوة.

وإذا كانت إسرائيل قد أرسلت التعصب المذموم والأعمى إلى من حولها من مجتمعات، فهى أيضا تعانى من هذا التعصب الخبيث داخل مجتمعها، ينهشها كالعفن، وأخبار الصراع بين الطوائف اليهودية وحرق معابدهم هى نتائج حتمية سوف تتضخم لما ارتكبوه فى المقدسات الإسلامية.

ونفس الشىء ينطبق على الحاكم الذى يزعم أنه يحكم مجتمعا إسلاميا باسم الإسلام، وكأنه حاصل على تفويض إلهى بالحكم، ويركبه الغرور والاستعلاء، فيخيل إليه أنه قادر على أن يحرك المجتمعات الإسلامية من حوله كما لو كانت قطعا من الشطرنج، تأتمر بأمره وإلا أحرقها أو دمرها.

مثل هذه النوعية من الحكام، تخلط بين السياسية اللاأخلاقية، والتفويض الدينى أو الإلهى الذى تدعيه، وتزعم أنها حصلت عليه، عى نحو لا ندرى كيف نفسره أو نقبله، ولابد أن ينتهى أمرها، بأن ترتد أفعالها وتصرفاتها اللاأخلاقية إلى صدرها، لأن مثل هذا الحاكم يصنع القدوة الشريرة، التى فيها هلاكه، قبل أن يكون فيها هلاك الآخرين. وهو يقدم لشعبه ولافراد مجتمعه نموذج الشر، فإذا أتبعوه فأول من سيلحق به الشر هو هذا النموذج، لأن هذه هى سنة الحياة وسنة البقاء. ومن هنا كان الخوف من انطلاق عدوى الشر من هؤلاء الحكام إلى الجماعات الإسلامية.

السمع والطاعة

والأخلاق مطلوبة، بل ضرورية، على مستوى الحكام وعلى مستوى المحكومين، ومازلت أذكر ما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه «لكى لا تحرثوا البحر» الذى نشره منذ حوالى ثلاثين عاما، وكان يوجه دعوة للتمسك بالأخلاق إلى رجال الثورة، أى رجال السلطة الجديدة التى تحكم فى مصر.. وكان يقول لهم: اعرفوا الحق ثم اتبعوه وسيجعلكم الحق أحرارا..!

وفى الفصل الأول من هذا الكتاب يتساءل الأستاذ خالد عن مفتاح شخصية الناس فى بلادنا فقال إنه للأسف الشديد يتلخص فى كلمتين : كلمة السمع وكلمة الطاعة..! فأنت إذا سألت مصريا أو أى عربى، من أى بلاد أنت، فلا تجهد قريحتك فى التذكر، وأجب من فورك :

– محسوبكم من بلاد السمع والطاعة..!

نفاق

وكان الأستاذ خالد يرى فى هذه «السمع والطاعة» بابا لدخول شر مستطير يفسد حياتنا وأخلاقنا. فالسمع والطاعة تفسد الحاكم، وهى أيضا تفسد المحكومين.

وروى الأستاذ خالد قصة حاكم فقد عقله، فأعلن فى الملأ إنه صار للناس إلها، فكان أن ذهب آلاف الناس يحجون إلى قصره يعلنون إنهم سمعوا وأطاعوا، ومثل هذا الحاكم يطالب الناس باذعان مطلق لاهوائه.

والسمع والطاعة تحول بين الناس والأخلاق القويمة، إنها تقوى غريزة القطيع بين الناس، بينما يضعف صوت العقل، وهى تعنى الانصياع المطلق لأمور وسياسات وقرارات لم يساهم الناس فى ابرامها، ولا يدرون ما إذا كانت لمصلحتهم أم ضدها، وهى تعنى الخضوع لطغيان تقاليد يفرضها حكم مستبد يتستر بأزياء الدين حتى تلين القلوب وتستسلم العقول.

وهذا أيضا هو خطر يلوث عقول الشباب المحتشدين فى الجماعات الإسلامية.

وأخيرا، يذكر الأستاذ خالد، كيف بلغ الفساد وسوء القصد أقصى درجاتهما، فيما كان يصدر عن المنافقين للطغيان من أحاديث ينسبونها كذبا إلى الإسلام، والإسلام منها برىء، يزينون فيها الطغيان والظلم !

فهل هناك نفاق أخبث من هذا وهل يرضى ذو شهامة وكرم وأصالة ونبل أن يظلم الناس، وأن يفرض ظلمه عليهم، وأن يقبل أن يكون هو والبلاء صنوان بالنسبة لشعبه.

أشرس من ميكيافيللى

لقد انقضت سنوات طويلة على كلمات الأستاذ خالد، وخلال هذه العقود الثلاثة، جاهدت أجيال من الشباب رجالا ونساء بطول الأمة العربية وعرضها للخروج من هذه الصورة القاتمة، وذلك المشهد الفاجع، مشهد النفاق والسمع والطاعة. ولا شك أن العرب قد حققوا نجاحا بدرجات متفاوتة للخلاص من هذا البلاء.

ولكن الذى يهمنا ـ الآن ـ هو أن نؤكد على ذلك المعنى الذى نحرص عليه، وهو أن الدعوة إلى حرية الرأى، هى فى المقام الأول دعوة أخلاقية، وأنها تمس جوهر شخصية المواطن، قبل أن ترتبط بحقوقه وواجباته السياسية. فقد نعلن ـ نظريا وعلى الورق ـ إن للمواطن حقوقا وعليه واجبات، ثم لا تكون هناك حقوق، ولا ينفذ أحد الواجبات، لأن سلوك الأفراد، وسلوك الحكام يرى أن السياسة لا صلة لها بالاخلاق.

ويزداد الأمر خطورة، إذا ما تسترت السياسة بأقنعة وشعارات دينية، فنرى أنفسنا فى مواجهة صورة أشد شراسة للميكيافيلية التى كانت ـ على الأقل ـ تفرق بين الدين والسياسة، وتفرغ الخطط السياسية من أية قيمة أخلاقية، فالسياسة ومناوراتها شىء والأخلاق والعقيدة الدينية شىء آخر، أما مزج السياسة اللاأخلاقية، والمناورات والدسائس بالتظاهر بالورع والتقوى والالتزام بأحكام الشرع، فهذا هو التزييف الذى لا يقبله أحد، لا حاكم عادل شريف، ولا رجل دين صالح.

تشنيعات

والسياسة اللاأخلاقية تفسد أدعياء الدين، أو الذين يتظاهرون بأنهم رجال دين. وإذا تصدى أحد إلى كشف تزييفهم وجهوا إليه الاتهامات والتشنيعات. والاستاذ خالد محمد خالد شاهد على مثل هذه التشنيعات والاشاعات الدنيئة التى طاردت رجلا مثل جمال الدين الأفغانى، وعالما مثل الشيخ محمد عبده. ولم تترك التشنيعات تهمة لم تلصقها بهذين الرجلين الجليلين. فعندما جمعا

الأموال لاصدار مجلة «العروة الوثقى» قالت ألسنة السوء: إنهما أنفقا الأموال على ملذاتهما الرخيصة فى ملاهى باريس..!

ويقول الأستاذ خالد : إنه سمع بأذنيه فى قلب الجامع الأزهر من يزعم بأن الشيخ محمد عبده مات ولسانه مدلى على صدره.

وانزعج الأستاذ خالد واعترض على ما سمعه، وسأل قائل هذا الكلام :

– لماذا تقول هذا.. ؟

فأجابه الرجل ـ الذى يدرس فى الأزهر !

ـ إن هذه علامة يفضح الله بها السكارى عند الموت..!

وفى ذلك الوقت، صدق الأستاذ خالد هذا الكلام، وسمع وهو طالب علم فى الأزهر أن إمام الجامع الأزهر كان رجلا سكيرا والعياذ بالله، فانهارت القيم وقد أصبحت الاتهامات والتشنيعات، هى الوسيلة التى يحارب بها كل خصم الطرف الآخر الذى ينادى بأفكار غير تلك التى يرحب بها.

أرسطو والسياسة والأخلاق

إننا قد نتحدث ليل نهار لألف عام عن أهمية الحوار وتبادل الرأى، ومعرفة الرأى والرأى الآخر. وقد نحفظ عن ظهر قلب كل فوائد ومزايا حرية الرأى.

ولكنى أتساءل : ما قيمة كل هذا، أمام انهيار أخلاقى وما قيمة المظاهر التى تعلن التمسك بالتقاليد والتى تتمسح بالدين، دون أن تتمسك بروحه وجوهره؟

إن هذا الذى شاع بين المثقفين عن الفصل بين السياسة والأخلاق، خطأ لا بد من تصحيحه، ومنذ كان هناك علم للسياسة كتب فيه أرسطو أبحاثه القيمة، عرفنا أن سياسة الدولة لابد أن تقوم على الأخلاق، لأن الدولة مثل الفرد تماما. إذا ساءت أخلاق الدولة فسد المجتمع وفسد الفرد، والعكس أيضا صحيح، وإذا كان أرسطو قد كتب فى السياسة كتابا، وفى الأخلاق كتابا آخر، ولم يجمع بينهما فى كتاب واحد، فليس معنى ذلك أنه أراد أن يفصل بينهما، وينفى العلاقة بينهما، وإنما فعل ذلك لأنه رأى أن أخلاق الأمة وأخلاق الفرد، كلاهما يعتمد على الآخر ويرتبط به.

حجر الزاوية

ومن روايات العرب حول الأخلاق فى السياسة كما كان يراها أرسطو، إن هذا الفيلسوف الكبير أرسل إلى الأسكندر المقدونى ـ تلميذه ـ رسالة ينصحه فيها قائلا له: كن عبداً للحق فإن عبدالحق حر.. واظهر لأهلك أنك منهم ولأصحابك أنهم بهم ولرعيتك أنك لهم.

هذه المعانى الأخلاقية هى حجر الزاوية بالنسبة لأى حديث عن السياسة فى مجتمع تسود فيه تعاليم الدين.

وبالنسبة لمجتمعاتنا العربية لابد أن يرتبط أى تصور سياسى لنظام حكم بالدين والأخلاق.

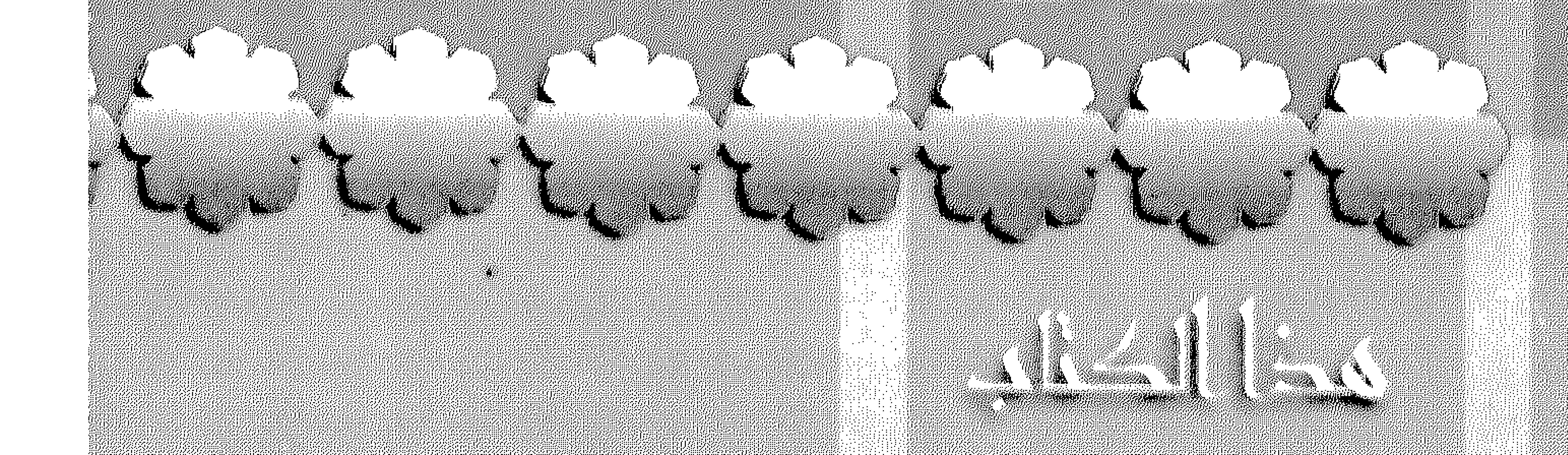
وهذا هو ما يجب أن ندافع عنه، وأن ننقله إلى شبابنا العربى، ليتحصن ضد أنواع من القدوة، تدفع به إلى التطرف والجموح

والعنف بلا روية، تحت تأثير شعارات، يبدو ظاهرها وكأنه من الدين، وهى فى باطنها مجرد قوة باطشة تريد أن تخضع عقول الشباب وأن تلغى إرادتهم ليتحولوا إلى أدوات أو حطب تلقى به فى أتون حروب سعيا وراء أمجاد وأوهام لا يصنعها إلا غرور الشيطان..!

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع ٩٨/٩٠٦٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N
977 - 08 - 0756 - 7



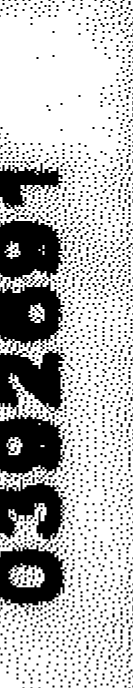
هذا الكتاب

فتحى غانم من ألمع الكتاب المصريين، وهو كاتب متعدد المواهب.. يكتب فى السياسة بنفس البراعة التى يكتب بها القصة القصيرة أو الرواية.. كما أن شهرته ككاتب سياسى تعادل تماما شهرته كروائى وأديب.

كما يتميز فتحى غانم بأنه كاتب يغلب العقل والتفكير فى كل ما يكتبه أو يبدعه، وهو يرى أن أخطر قضايانا المستعصية هى قضية العلاقة بين العقل والتفكير الحر من ناحية، والعقيدة الدينية من ناحية أخرى.. على الرغم من أن الأديان كلها تدعو إلى إعمال العقل والفكر.

إن الإيمان بالله مطلوب أولا بالعقل وبالاقتناع العقلى، وهذا هو الضمان الأكبر لازدهار الإيمان.. أن يكون الإيمان بالعقل وأن يكون مجتمع المؤمنين مجتمع عقلاء..

وفى هذا الكتاب يشرح لنا فتحى غانم أهمية الفكر وال
أزمة الإسلام والسياسة نتيجة غياب النشاط العقلى عند ال

نبي



طبع بمطاب